مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ النَّمْلِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي
أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة النّمل

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة النمل

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ ﴾

ابتدأت سورة النمل بِمِثِل ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة يونس، وسورة هود، وسورة الشعراء، قال تعالى ﴿ طسٓ ﴾ وهما حرفان من الحروف المقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام حرفين، لا يعرف عنهما شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأما عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، ونؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر، وهناك من اجتهد في معناها ودلالتها.

ومن فوائد ذلك أنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[١]

فمن فوائد ذلك شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[٢]

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١/١٠٩)

(٢) المرجع السابق (١/١٠٩)

أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[١] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم لما يُراد تعليمه إياه، وإخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

بعد أن افتتح الله تعالى سورة النمل بحرفين من الحروف المقطعة لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، بما يثبت أنه من عند الله تعالى، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، يُشيد سبحانه وتعالى بآيات القرآن الكريم، والثناء عليها بما اتصف به كتابه من كمال الأوصاف الحكيمة العظيمة، فينتقل السياق الرباني إلى بيان وتأكيد وضوح كتابه القرآن الكريم وضوحاً بيناً إلى درجة الإعجاز في فصاحته وبلاغته، ووضوح معانيه ودلالاته، ودقة هديه وأهدافه وجميع أحكامه وشرعه المستقيم، فقال تعالى ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ فهذه آيات القرآن الْمُحْكَم المبين، فهو مُحكم من الباطل، والخلل، والاختلاف، والتعارض، وأن أحكامه واضحة جلية، قد أوضح فيها سبحانه وتعالى الحلال والحرام، وفَصَّل الحدود والأحكام، وأوضح فيه الأخلاق والإحسان، وأشبعه بالمواعظ من القصص والترغيب والترهيب.

ومن غزارة المعنى أن مكونات هذه الآية تعطي العديد من الدلالات المتنوعة، بالرغم من قلة عدد كلماتها، فبدأ البيان باسم الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾ التي تشير إلى آيات هذه السورة، وآيات القرآن الكريم بكامله ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ واسم الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾ يشير إلى آيات هذه السورة باعتبار موقع ﴿ تِلْكَ ﴾ من السورة، قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى عن ﴿ تِلْكَ ﴾ في سورة يونس: إنها إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات، والتبعيد للتعظيم[٢] وأما باعتبار أنها بمعنى: هذه، فتكون بمعنى هذه آيات القرآن. قال القرطبي رحمه الله تعالى: أن ﴿ تِلْكَ ﴾ بمعنى هذه[٣] فتشمل جميع آيات الكتاب الكريم، وكلا الوجهين صحيح الدلالة، مما يفيد عمق البناء البلاغي للنص الكريم، بحيث أعطى دلالتين، أو وجهين صحيحين، إذ لا تضاد بينهما، وهذا من الإعجاز البياني في القرآن الكريم.

وفي اسم الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾ ما يفيد التعظيم والتفخيم، كما فيه كذلك لفت الانتباه وشده لمضمون الكتاب، ليحصل المزيد من التأمل والتفكر في آيات القرآن الكريم، فإنه يتبين لكم أيها المخاطَبُون من عمق معانيه

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧/١)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤٢١/٢)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٤/١٣، ١٦٤)

ودلالاته، ومقاصده وتشريعه، وقوة بيانه أنه مُنَزَّلٌ من عند الله تعالى، مما يستلزم التصديق به، والتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً من رب العالمين، أنزل عليه هذا القرآن العظيم.

وقد ذكر تبارك وتعالى القرآن مرتين في هذه الآية الكريمة، المرة الأولى بإضافة الآيات إليه ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ والمرة الثانية: التالية له باسم الكتاب ﴿ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ ليبين ويتبين بذلك أن تلك الآيات التي يتلوها الرسول صلى الله عليه وسلم على الناس، هي آيات القرآن، لأنها بعض من القرآن. ثم يبين أنها جميعاً من الكتاب الكامل الوافي القرآن العظيم، ولذلك وردت إضافة الآيات للقرآن وللكتاب المبين. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين: على سبيل التفخيم لها، والتعظيم، لأن المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه. وأضاف رحمه الله تعالى أن سبب ورود الكتاب بصيغة النكرة ﴿ وَكِتَابٍ ﴾ ليكون أفخم[1] والكتاب هو القرآن العظيم، فوصفه سبحانه وتعالى بالكتاب ﴿ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي: الواضح من كل وجه، كما تفيد دلالة المبين الإظهار والوضوح. وهو مِن أبان وأظهر. وقد استجمعت دلالة ﴿ ٱلْمُبِينِ ﴾ كمال صفة الوضوح، الذي انتفى به النقص والغموض والخلل، فاستحق كمال الثناء لحقيقة ما تضمنه القرآن الكريم من قوة البيان، وجزالته، وبلاغته، ومضمونه وأهدافه، وأحكامه وتشريعه الذي استوفى حاجات العباد بأعلى غاية الوضح. فهو متضمن للإبانة التامة لفظاً ومعناً وسياقاً، مع انتفاء الخلل والتعارض والاختلاف والاختلال عن هذا الكتاب العظيم، فليس بعد هذا البيان أبلغ منه.

ومن دلالة قوة إعجازه أن هذا الكتاب هو ﴿ ءَايَٰتُ ﴾ وليس آية واحدة، بل ﴿ ءَايَٰتُ ﴾ كثيرة، ومتعددة، ومتنوعة فيما تناولته. ثم عَرَّف سبحانه وتعالى الآيات بأنها ﴿ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ فإنها آيات القرآن، التي تَكَوَّن منها هذا الكتاب العظيم، الواضح الْمُبَيِّن ﴿ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ الذي أُنزِل على رسوله صلى الله عليه وسلم. بما يفيد كمال محتواه، وعظيم دلالاته ومقاصده، ونظمه، إذ أصبح بمجموع آياته كتاباً متكاملاً في مضمونه ومحتواه من كل وجه. وفيه تقرير بأن هذه الحجج التي قد تَكَوَّنَ منها الكتاب المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، والتي هي من حروف العربية التي منها ﴿ طسٓ ﴾ هي مما تعرفونه ولا تنكرونه، بما يفيد بيان قوة معناه ومبناه الذي أنتم عن الإتيان بمثله عاجزون.

وقد ذكر سبحانه وتعالى هذا القرآن باسم الكتاب، وأن صفته أنه مبين ﴿ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ وهو اسم نكره، لدلالة لتفخيم، بأنه الكتاب الكامل المبين، المتصدر في جنسه، فآيات هذا الكتاب بلغت منتهى

---

(1) الزمخشري، الكشاف (٣/٣٤٤)

الكمال، وأن مُنتهى كمال الكتاب دليل على منتهى ذروة كمال آياته. كما أن الكتاب اسم جنس، يدل على كماله.

ثم ذكر من صفاته، أنه ﴿مُّبِينٍ﴾ فاستجمعت هذه الصفة كمال صفة الوضوح، الذي انتفى به النقص، والغموض، والخلل، فاستحق كمال الثناء، لحقيقة ما تضمنه من قوة البيان، وجزالته، وبلاغته، فهو متضمن للإبانة التامة لفظاً ومعناً، مع انتفاء الباطل والخلل والتعارض والاختلاف عن هذا الكتاب، فليس بعد هذا البيان أبلغ منه.

ثم بعد مطلع السورة البياني لآيات القرآن الكريم، وما دلت عليه من آيات الإعجاز، يخبر بحظ ونصيب المؤمنين به، فإنه ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه هادي إلى الحق في الدنيا لمن اتبعه، وهم المؤمنون المصدقون، ليوصلهم إلى سعادة الآخرة في جنات النعيم، لأن مضمون ﴿هُدًى﴾ أي: يهدي من تأمله وأخذ به إلى الخير والحق والصواب بأساليبه العظيمة، وحججه القوية، وتشريعه الحكيم، وقد ورد ببيان عظيم تتحقق به القناعة لمن تأمل وتدبر وأراد الهدى الذي يسعد به من أخذه سعادة في الدنيا وسعادة ونجاة في الآخرة.

وكذلك فإن به تحصل البُشرَى التي يسعد بها من اتبع هداه ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو بشرى في الحياة الدنيا للمؤمنين بما يسعدون به في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا تكون سعادتهم بما يهديهم إليه من الحق والطريق المستقيم الذي تستقيم به الحياة، ويبشرهم بأن لهم في الآخرة الثواب العظيم الجزيل، وذلك بالفوز بجنات النعيم، والتوفيق إلى الصراط المستقيم. وقال تعالى في سورة يونس ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ فمن اتبع القرآن وعمل به فإن الله تعالى يبشره بمستقبله في الآخرة، بأن يتحقق له بذلك الثواب العظيم، والنجاة من النار، ودخول الجنة، فيكون القرآن له بشارة بتلك الرحمة، بما ينعكس في سلوكه وأخلاقه ونفسه وطمأنينته. وقد خص البشرى بالمؤمنين فقط دون غيرهم، لأنهم انتفعوا بالقرآن الكريم بتطبيق ما وردهم فيه من الآيات والتشريع الحكيم، فقد بشر الله تعالى من أخذ به بالجنة، وحسن العاقبة. ومن دقائق البيان أن هذا الهدى، وهذه البشرى التي تضمنها القرآن العظيم تمثل الدلالات التي استوعبت الخير كله في الدنيا والآخرة. مما يدل على أن من اعتصم بالقرآن الكريم، واهتدى بهديه فإنه قد سلك مسلك النجاة والخير في الدنيا والآخرة.

ثم عَيَّن تبارك وتعالى صفة أولئك المؤمنين الذين لهم البشرى بثلاثة أوصاف ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ فالذين يستحقون ما بشرهم الله تعالى به هم الذين اتصفوا

بهذه الصفات الثلاث: الصفة الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الذين يؤدون الصلاة المفروضة كما أمرهم ربهم بها، فمن حافظ عليها في أوقاتها، وبشروطها وهيئتها، فقد استوفى القيام بها. ومن استوفى أداء الصلاة فهود دليل على إيمانه، وصدقه، وكريم أخلاقه، لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر كما قال تعالى في سورة العنكبوت ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ والصفة الثانية هي: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فيؤدون فريضة الزكاة المفروضة عليهم في أموالهم وأبدانهم، مما يفيد ويحث على متابعة الإنفاق؛ طاعة وامتثالاً لله عَزَّ وجل. والصفة الثالثة، هي: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ فقد بلغ منهم الإيمان والتصديق بالآخرة والبعث والحساب مبلغ اليقين الذي لا يساوره أدنى شك. واليقين هو الاعتقاد الجازم، المبني على العلم الراسخ الذي انتفى منه الشك. ويُصَدِّقُه الامتثال بما أيقن. وهذا الإيمان وقوة اليقين يدعوهم إلى تحقيق التقوى في القلب، فيسعون للآخرة بالعمل الجاد الصحيح، فيكون سعيهم سعي المراقب لنفسه والمتابع لعمله، فيحث نفسه على كمال الطاعة، واجتناب المعصية. فمن حقق هذا كان هو المعني بالبشارة من الله تعالى التي تضمنها القرآن للمؤمنين. ومن بديع البيان ودقته تكرار ضمير ﴿هُمْ﴾ مرتين، لإفادة التنبيه وقوة التخصيص وإفادة الحصر، أي لا يوقن بالآخرة حق اليقين إلا من جمع بين تلك الخصال.

ثم يبين تبارك وتعالى حال المضاد لحالة أهل الإيمان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ فكما أن للمؤمنين البشرى الجميلة لانتفاعهم بهدى الله تعالى، فإن للذين امتنعوا عن الإيمان بكفرهم؛ لهم العقاب والعاقبة التي من جنس أعمالهم الكفرية التي امتنعوا بها عن الهدى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ إن هؤلاء الكفار الذين ينكرون الآخرة، ولا يصدقون بالبعث بعد الموت، وبالتالي ينكرون الحساب والجزاء، فأصبحوا من المضادين للإيمان وللمؤمنين، فهؤلاء عذابهم الأول في الدنيا هو ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فحبب وحَسَّن وزَيَّن اللهُ تعالى لهم غيهم وقبيح أفعالهم، جزاء وفاقا ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ فهم يترددون في أعمالهم الخبيثة، بالتخبط فيها من الحيرة. فكما قدموا وأحبوا الباطل على الحق، والغي على الرشد والهدى، وحاربوا الحق والصلاح بباطلهم، كان جزاؤهم في الدنيا بمثل صنيعهم، فجعلهم يتيهون في ضلالهم، مغتبطون وفَرِحُون بما هم فيه من الباطل. فقد عَلِمِ الله تعالى بسابق علمه أنهم لن يؤمنوا، فكان هذا الجزاء الدنيوي، الذي عاقبته في الآخرة النار وبئس المصير.

وقد أكد الله تعالى جزاءهم في مطلع الآية بحرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ كما أن في دلالة التزيين ﴿ زَيَّنَّا ﴾ ما يفيد أن صاحب الباطل المتمادي في باطله، العازف عن التوبة من زيغه وضلاله؛ فإن الله تعالى قد يعاقبه بأن يُحببه فيما هو فيه من الباطل، وذلك من باب العقوبة له على فعله. ولذلك هناك من يتباهى بالمعصية، وبمحاربة الحق. وفي هذا تحذير وموعظة للإنسان حتى يكون على بينة من أمره.

ثم يخبر الله تعالى بعقابهم ومآلهم في الآخرة، فيقول عَزَّ وجل ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴾ فأولئك المكذبون بالآخرة، الذين يمرحون ويترددون في أعمالهم الخبيثة بالتخبط فيها من الحيرة والتيه، فإن لهم أسوء وأبشع وأنكل العذاب. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ وهذا العقاب الموصوف بسوء العذاب يكون في الدنيا والآخرة، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي في الدنيا والآخرة[١] وقد يكون من دلالة ذلك أن المقصود به في الدنيا بما يحصل لهم من سوء العاقبة في الآخرة، لأن عقاب الآخرة هو نتيجة محصلة أعمال الدنيا. ويخصصه على أنه في الدنيا ما ورد بعده من خسارة الآخرة. فبما عملوا في الدنيا من الكفر تحقق لهم به خسارة الآخرة ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴾ فيخسرون في الدنيا، وتزداد خسارتهم في الآخرة، وتتعاظم بما يكون لهم من العذاب المقيم الذي لا ينفك عنهم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة لهم سوء العذاب في الدنيا، وهم الذين قُتِلُوا ببدر من مشركي قريش[٢] وهذا ما يخص مشركي قريش، ولكن هي عامة لكل من كفر.

وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: وقيل في الدنيا كالقتل والأسر. ووجه تخصيصه بعذاب الدنيا قوله بعده ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴾ أي: هم أشد الناس خسراناً، وأعظمهم خيبة[٣] وبالتالي جمعت الآية دلالتين: الأولى: عامة للدنيا والآخرة معاً ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ والثانية: خاصة بما يجدونه في الآخرة مما هو أسوء من الدنيا، وأسواء من غيرهم، وذلك بما يجدونه من العذاب المقيم الذي لا ينفك عنهم. فدلالتها تجمع الأمرين معاً، مع تخصيص الآخرة بأشد مما يجدونه في الدنيا. وهذه من بلاغة سياق الآية المباركة.

وكذلك أنهم في الآخرة أكثر خسارة من غيرهم الخاسرين، فهناك خاسرون، وأخسرون. فالخاسر قد يخسر شيئاً، أو أشياء، وهناك الأخسر، أي الأشد خسارة، وهم الذين لهم سوء العذاب. وهذا من تنوع

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٦٨)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/٧)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٤/١٢٦)

العذاب في درجاته، ومدته، وأن أعظمه خسراناً هي خسارة الكفَّار بجميع أنواع كفرهم. ومن الدلائل البيانية أن كلمة ﴿ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ تفيد: الأشد خسارة، لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم، فأصبحوا في عذاب لا ينقطع. كما تكرر اسم الإشارة مرتين ﴿ لَهُمْ ﴾ وكذلك ﴿ وَهُمْ ﴾ لإفادة حصر الموصوفين بالكفر بأشد الخسارة وأنكاها، لأنهم خسروا الجنة التي لا يمكن لهم دخولها أبداً، مع استمرارهم في عذاب جهنم الذي لا ينقطع عنهم. والعذاب الدنيوي كثير ومتعدد الأوجه، لا يحصيه إلا الله تعالى: ومن ذلك قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ فقد يكون التعذيب لهم في أموالهم بالمصائب التي تقع فيها وبأسبابها، والمشقة العاتية في تحصيلها، والخوف والقلق عليها، ويكون أولادهم مصدر شقاء وعذاب لهم، وهو من أسوء أنواع العذاب على النفس، وتزهق أنفسهم بحضور شدائد الموت. وبغير ذلك مما يسلطه الله تعالى عليهم. فنسأل الله تعالى العافية.

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ
أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا
وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا
جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ
سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓۚ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا
وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى بعض صفات القرآن الكريم، وأثره على المؤمنين، وجزاء من كفر به، وأنكر الآخرة، يؤكد عزَّ وجل بأن مصدر القرآن العظيم عائد إليه عزَّ وجل، فقد أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ يخبر الله تعالى عباده في خطاب موجه لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ ﴾ بأنك يا محمد لتأخذ القرآن بطريقة التلقي من ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ من ربك الحكيم في أوامره ونواهيه، وفي تدبير خلقه، والعليم بأنباء جميع خلقه ومصالحهم، فلا يخفى عليه شيء من ذلك.

ومن جليل البيان أن دلالة ﴿لَّدُنۡ﴾ أعطت تأكيد وتخصيص مصدر نزول القرآن أنه من الحكيم العليم، وذلك إشادة بمنزلة القرآن العظيم، كتاب رب العالمين، وأيضاً إشادة بمنزلة ومكانة من أُنزِل القرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. كما أن دلالة ﴿لَتُلَقَّى﴾ أفادت الأخذ للقرآن مباشرة من الله تعالى الحكيم العليم بواسطة الملك جبريل عليه السلام. وفي تعيين صفتي الحكمة والعلم لذاته تبارك وتعالى ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ ما يبين العلاقة بين محتوى ومضمون القرآن العظيم وبين من أنزله، فإنه مليء بالحكمة والعلم، لأن الذي أنزله حكيم عليم، فهو حكيم فيما أنزله بما يناسب عباده، ومصالحهم وما يُصلحهم ويهديهم، ويعلمهم ما تنصلح به دنياهم وآخرتهم. وفي هذا توجيه للعباد من خلال مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم بأن القرآن نزل عليك أيها النبي من ربك تبارك وتعالى. وفي هذا الأسلوب رفعة لشأن مقام النبي صلى الله عليه وسلم، وتزكية له. وأيضاً في هذا البيان رفعة وتعظيماً لشأن القرآن العظيم، وتنويه لما بعده من القصص والأخبار عن الأمم السابقة التي لا يعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا قومه، لتكون دلالة على أنه من لدن حكيم عليم، الذي يعلم بكل ما في ملكوته، فلا يفوته شيء حتى دقائق تفاصيلها، بل حتى ما يختلج في الصدور والضمائر مما يتكتم عليه العباد، وأنه هو المدبر بحكمته وعلمه لأحوال عباده، وجميع خلقه.

وبعد بيان الله سبحانه وتعالى أن هذا القرآن قد تلقاه رسوله صلى الله عليه وسلم من لدنه الحكيم العليم، يُورد عَزَّ وجل جانباً من قصة موسى عليه السلام، لتكون عظة وموعظة للعباد، وتسلية لما يعانيه الرسول صلى الله عليه وسلم من قومه، ولِيذكُر هذه القصة على الناس حتى يدركوا بها نبوته، لأن ليس لمحمد صلى الله عليه وسلم بها علم من قبل، كما هو شأنهم في الجهل بها، وليتيقنوا بها وبغيرها أن هذا من عند الله عَزَّ وجل، وأن محمداً رسول الله، وليكون ذلك حجة عليهم. وقد وردت قصة موسى عليه السلام في العديد من سور القرآن الكريم، لما فيها من العظة والدروس. وبدأت قصته عليه السلام في هذه السورة وفي سورة طه بأول شأن نبوته، عندما رأى ناراً وهو عائد إلى مصر من مدين. وهو موسى بن عمران، وينتهي نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

وقد كَلَّمَهُ ربه تبارك وتعالى مباشرة، على ما سيأتي تفصيله. فقال تعالى ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ فبدأ البيان الكريم بمزيد من التشويق، وإثارة الانتباه والترقب لما بعده ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ فرؤية موسى عليه السلام للنار، يعتبر خبراً يثير الترقب والتشوق، ومحبة استقصاء الخبر عن ماهية النار، وعلاقة موسى عليه السلام بها، بما يدل على أن في ذكرها

أمر مهم، ومُلفت للنظر والتأمل والتَّبَصُّر. خاصة وقد ابتدأ القصة بكلمة ﴿ إِذْ ﴾ أي: واذكر قصة موسى حين قال لأهله.

وفي افتتاح القصة بحرف ﴿ إِذْ ﴾ تفيد المفاجأة، وشد الانتباه بالتشويق لمتابعة القصة. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وخص هذا الظرف بالذكر لأنه يزيد تشويقاً إلى استعلام كنه الخبر، لأن رؤية النار تحتمل أحوالاً كثيرة[١] وكان ذلك الحدث والشأن في وقت شتاء، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ذُكِر أن ذلك كان في الشتاء ليلاً، وأن موسى كان أضَلَّ الطريق، فلما رأى ضوءَ النار قال لأهله ما قال[٢] فاذكر أيها الرسول لقومك ولغيرهم قصة موسى ليعتبروا ويتعظوا بما فيها من الدروس والمواعظ التي تصحح المفاهيم، وتبين قدرة الله تعالى، وتوضح منهج الله تعالى في دعوة العباد، وعن مهمة المرسلين، وأهدافها وأهدافهم وغايتهم، وغاية ما أُرسِلُوا به. وكذلك فيها تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيما يعانيه من عناد قومه، وبيان لما عاناه موسى عليه السلام من فرعون وقومه.

فبعد رؤية موسى عليه السلام للنار، طلب من أهله البقاء مكانهم، ليذهب بمفرده إليها، فيستطلع الأمر، وهو آنذاك بجانب الطور الأيمن ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أخبر أهله بما رأى من النار. وطلب منهم المكوث ليذهب لها منفرداً، لأن جملة ﴿ سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا ﴾ تفيد أنه هو الذي سيذهب منفرداً، فيكون قد طلب من أهله المكوث، والإقامة في مجلسهم، وعدم اللحاق به. خشية أن يجد من لا يأمنه، وما يتأذون به ومنه. مما يفيد ويُعَلِّم أهمية التحرز والوقاية، والأخذ بمثل ذلك مع الأهل، والحرص عليهم، وعدم المخاطرة بهم. وكلمة الأهل تعني زوجته، مما يفيد أن الزوجة هي مفردة من منظومة الأهل ودلالتها، والتي تجمع الأولاد، والأقارب الأدنون، ومَنْ هُم تحت مسؤولية الرجل ورعايته. وورد الأهل بصيغة الجمع ﴿ لِأَهْلِهِۦٓ ﴾ لإفادة التفخيم، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والمراد بالأهل هنا امرأته، والجمع لظاهر لفظ الأهل، للتفخيم، وقيل المراد به المرأة والولد والخادم[٣] وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أي: امرأته[٤] مما يدل على أن الجمع من باب التفخيم. وعلى القول بأن معه مع امرأته

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢٥/٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/١٦)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٣٥٧/٣)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٩٠/٥)

والولد والخادم ما يفيد أن الخادم يدخل في الأهل، لأن الرجل مسؤول عن خادمه، كما يفيد ذلك أنه ربما له من زوجته شيء من الولد. وقد يكون من باب التفخيم.

ثم يبين موسى عليه السلام علة أمره لأهله بالمكوث، بأنه ذاهب عنهم من أجل الإتيان بشعلة من النار ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ أي: أني أبصرت ناراً واضحة جلية، فقد أكد ذلك بحرف نون التأكيد التي اشتملت عليه ﴿إِنِّيٓ﴾ بما يفيد التيقن والتأكد منها. قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن ﴿ءَانَسۡتُ﴾ أن: الإيناس هو: الإبصار الْبَيِّن الذي لا شبهة فيه، وقيل هو إبصار ما يؤنس به[١] فأوضح وبين لأهله ما رأى بأسلوب التأكيد الذي يبعث في نفوسهم الطمأنينة والثقة، مما يفيد أهمية إشراك الأهل فيما يحسه ويراه الراعي لهم، وأن لا يتسلل عنهم، فلربما شاركوه الرأي. بل من حُسن صحبته وعشرته أن ذكر لهم الهدف والغاية من ذهابه إليها ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ سآتيكم منها بالخبر الذي قد ينفعنا ويهدينا إلى الطريق الذي يوصلنا لغايتنا. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: قال من يهديني إلى الطريق، وكانوا شاتين، وضلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق، آتيكم بنار توقدون بها[٢] رجاء أن أحصل من هذه النار على أحد هدفين: الأول: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ علم بشأن هذه النار المتوقدة، فأجد على النار دليل إرشاد إلى الطريق الذي فقدوا اتجاهه، فيتبينوا طريق العودة من ذلك الهادي الذي على النار.

وكلمة ﴿بِخَبَرٍ﴾ تستجمع جميع أنواع الخبر، لأن الخبر متنوع بحسب نوع الحدث، وأسبابه. وأما الهدف الثاني فهو: ﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ والشهاب، هو الشعلة المشتعلة من النار، وأما كلمة ﴿قَبَسٖ﴾ فمعناها كما قال الزمخشري رحمه الله تعالى هي: النار المقتبسة في رأس عود، أو فتيلة، أو غيرهما[٣] بينما الجذوة: هي الجمرة الملتهبة. وهي الوسيلة السائدة التي يتمكن منها الإنسان الأخذ بقبس من النار، أو جذوة منها. والهدف من المجيء بها هو للتدفئة من برد الشتاء. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وفي قوله ﴿بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ دل على وجود الظلام[٤] أي: أن الأمر كان ليلاً. ودلت جملة ﴿لَّعَلَّكُمۡ

(١) الزمخشري، الكشاف (٥٢/٣)
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٥١/٣)
(٣) الزمخشري، الكشاف (٥٢/٣)
(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٥١/٣)

﴿ تَصۡطَلُونَ ﴾ أن الوقت كان شتاء، وكان الطقس أو الوقت شديد البرودة، والمقصد والهدف من إحضار شعلة النار ﴿ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴾ أي: تستدفئون بها من شدة البرد. ومؤكداً ذلك بحرف التسوية بين الهدفين ﴿ أَوۡ ﴾ فإن حصل على الأول فنعمة، وإن حصل على الثاني فنعمة، وإن حصل عليها فذلك أجزل في التحصيل وتحقيق المراد.

ثم يخبر الله تعالى بخبر موسى عليه السلام حين وصل إلى موقع النار التي رآها ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فعندما وصل إلى موقع النار التي رآها، أي: من جهتها وناحيتها ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ ﴾ أي: جاءه ووروده نداء. والنداء: هو طلب الإقبال والاستماع والانتباه، وغالباً ما يكون باسم الْمُنَادَى إذا كان معروفاً لدى الْمُنَادِي. ومن دقائق وجمال السياق أنه احتوى على التشويق ابتداء، بأن لم يُذْكَر اسم الْمُنَادِي لموسى عليه السلام ﴿ نُودِيَ ﴾ لِيُحْدِث ذلك تشوقاً عند القارئ والمستمع لآيات الله تعالى، لمعرفة من هو الْمُنَادِي. وكذلك من جمال التناسق بين البيان وبين واقع الحال لموسى عليه السلام، أنه لَمَّا كان سياق المنادي غير معروف لموسى ابتداء، ورد السياق كذلك بصيغة إبهام المنادي، بعدم إظهاره وبيانه، ليتناسق ويتساوى الحال بين موسى وبين من يخاطبه القرآن بشأن موسى. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: أُدخِل في تصوير تلك الحالة بأن موسى ناداه منادٍ غير معلوم له، فحكى نداؤه بالفعل المبني للمجهول[١] وبلا شك أن حال موسى في تلك اللحظة هو الانبهار والترقب لمعرفة مَن صاحب الصوت الذي يناديه باسمه تحديداً في ذلك المكان الذي يجهله، ولا يعتقد أن أحداً يعرفه في ذلك المكان، وفي ذلك الليل، ليقول له الله تبارك ﴿ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فابتدأ البيان بما يُحدث لديه الطمأنينة ﴿ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا ﴾ أي: ثبوت البركة وتحققها في النار التي وصل إليها موسى، وفي كل ما هو حولها، لتشمله تلك البركة، وتشمل الملائكة الذين هم حولها، فتشمل موسى عليه السلام ويعمه الخير والبركة، وتُثْبَت له بأنه رسول مبارك من الله تعالى. وقال قتادة رحمه الله تعالى عن ﴿ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ أي: نور الله بُورك، وقال آخرون ومنهم مجاهد رحمهم الله تعالى: بُوركت النار[٢] وقال ابن عباس

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢٧/٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/١٠-١٢)

رضي الله تعالى عنهما وغيره: لم تكن ناراً، وإنما كانت نوراً يتوهج[١] فعلى أي حال كانت النار هي، فإن المتكلم هو الحكيم القدير، وسبحان الله العظيم. ثم ينزه الله سبحانه وتعالى ذاته عن كل نقص ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تنزيهاً وتقديساً لله رب العالمين الذي يفعل ما يشاء، والمنزه عن الشبيه والمثيل، فهو العلي العظيم، الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي تصمد إليه الخلائق، والذي لم يلد، ولم يولد ولم يكن له كفواً من خلقه.

ثم يخاطب الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام مبيناً له أن الذي يكلمه هو الله العزيز الحكيم ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ يا موسى إن الحال والشأن أني أنا الله العزيز الحكيم. فابتدأه بياء النداء ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ لشد الانتباه، بأن ترعني سمعك وانتباهك، ثم ذكر وعَيَّن الْمُنَادَى باسمه ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ ليدرك موسى ويُوقِن أن الذي يناديه يعرفه باسمه حق المعرفة. ليتحقق بذلك كمال الاطمئنان من جهة المتكلم الذي يسمعه ولا يراه موسى عليه السلام. ثم تلاه التعريف العظيم، الأتم الأكمل بذاته سبحانه وتعالى، مبتدئاً بنون التوكيد التي تؤكد ما بعدها من الكلام ﴿ إِنَّهُۥٓ ﴾ والذي لحقها حرف الهاء، وهو ضمير الشأن، أي: الشأن والأمر الْمُتَحَدَّث عنه. فهو كناية عن الأمر والشأن الذي يتم تناوله. ثم تلاه ضمير المتكلم ﴿ أَنَا ﴾ الذي زاده تأكيداً، والذي أفاد تقرير ما بعده، من أن المتكلم هو الله جَلَّ جلاله ﴿ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ فلم يقل سبحانه وتعالى: أنا الله، بل ﴿ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ إنه أنا الله المنادي لك يا موسى.

ثم ذكر صفتين عظيمتين له عَزَّ وجل، الأولى: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. والثانية: ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، وكمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. ليعطي عبده وغيره أدب البدء، وأخلاق الخطاب، ومنهج التعريف. فإنه أنا الله المنادي لك يا موسى فانتبه لِمَا سأقوله لك.

ثم يخبر الله تعالى عباده بما كلم به موسى، وما أعطاه من الآيات الباهرة العظيمة الدالة على أنه رسول من رب العالمين، فقال تعالى لموسى عليه السلام ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أمر سبحانه وتعالى موسى عليه السلام بطرح عصاه

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٦٩)

على الأرض ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ فامتثل موسى عليه السلام فألقى عصاه، فحدث منها ما أخافه وأرعبه ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ ﴾ فتحولت إلى حية، تضطرب اضطراباً شديداً بحركتها ﴿ تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والجان ضرب من الحيات، أسرعه حركة، وأكثره اضطراباً[١] فلما شاهد وعاين موسى ذلك ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ أي: تركها وذهب عنها، بمخالفة مشاهدتها على تلك الحال، لما حصل له من المفاجأة التي لا يتوقعها من أن عصاه تتحول إلى حية تسعى في اضطراب وحركة سريعة شديدة، ولذلك وصف سبحانه وتعالى إدباره بالتولي عنها ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ والتولي الرجوع المضاد لما هو فيه من اتجاه، فكان اتجاهه نحو العصا، فعكس اتجاهه بحيث تكون العصا خلفه، والإدبار مماثل للتولي، ومؤكداً له من حيث الفعل والاتجاه ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي: ولم يرجع إليها من شدة ما أصابه من الذعر. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والتعقب: الرجوع بعد الانصراف. مشتق من العقب. لأنه رجوع إلى جهة العقب، أي الخلف[٢] وهو تأكيد على شدة توليه.

ومن بلاغة البيان أن السياق حذف ما استغنى عنه بغيره. فلم يذكر أن موسى عليه السلام ألقى عصاه. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: في الكلام محذوف، تُرِك ذكره. استغناء بما ذُكِر عما حُذِف، وهو فألقاها فصارت حية تهتز[٣] فلم يذكر السياق ما أغنى عنه غيره، وهو تحول العصا إلى حية كأنها جان، دليل على أنه ألقاها، وهذا من بلاغة البيان، وهو الإيجاز في غير إعجاز.

وهنا يناديه الله تبارك وتعالى ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ فيناديه تبارك وتعالى باسمه ﴿ يَٰمُوسَىٰ ﴾ زيادة في التطمين ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ لا يحدث لك الخوف مما رأيت من شأن تحول العصا إلى حية تسعى، ثم زيادة في التطمين يبين له عَزَّ وجل منزلة ومكانة المرسلين عنده سبحانه وتعالى فيما يتعلق بجانب الخوف ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ فلا يخاف عندي من اخترته رسولاً. فإن من اختصصتهم بالرسالة لا أجعلهم يخافون. وهذه كرامة عظيمة، وعلامة ظاهرة على الأنبياء والمرسلين في مواجهتهم لأصحاب النفوذ والبطش والجبروت من غير خوف ولا ارتباك، كمواجهة موسى عليه السلام لفرعون، ومواقفه معه. مما

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٦٩)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٨/٤٤٢)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/١٤)

يفيد أني اصطفيتك رسولاً، فأصبحت منهم. وهو تعليل للنهي عن الخوف، فَعُد وارجع إلى أمنك وأمانك وعصاك واطمئن.

ومن جميل الحفاوة والتكريم أن بدأ تعليل عدم الخوف بحرف التوكيد المتصل بالضمير العائد على الجلالة ﴿إِنِّي﴾ ثم ورود التعليل بعدم الخوف بلفظة ﴿لَدَيَّ﴾ التي تفيد المنزلة والمكانة التي حضي بها من اخترته فاصطفيته ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وهذا غاية العناية والحظوة والتشريف والمنزلة الرفيعة.

ثم يذكر تبارك وتعالى حلول عقابه على من ظلم، بأسلوب الاستثناء الذي يستثير الذهن لمضمونه العظيم ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيخبر الله تعالى رسوله موسى عليه السلام بأنه لا يخاف لدي المرسلون، ولكن من ظلم من عبادي، ثم تاب من ظلمه، فتركه، وأبدله واستبدله بالأعمال الصالحة فإني أغفر له برحمتي لعبادي. ذكر القرطبي رحمه الله تعالى: إني لا يخاف لدي المرسلون، وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ فإنه لا يخاف[1] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهذا استثناء منقطع. وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل سيء، ثم أقلع عنه ورجع، وتاب وأناب، فإن الله يتوب عليه[2] فيخبر الله تعالى برحمته على من تاب وأقلع عما كان منه من الشر والباطل، واستبدل شره وباطله بالخير والحق ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾

ومن دقائق البيان أن ﴿بَدَّلَ﴾ تفيد ترك شيء سابق، والإتيان بغيره. أي ترك السوء واستبداله بالخير، بأن يحل محله في القول والعمل، كما أفادت ﴿ثُمَّ﴾ الترتيب الذي يفيد التخلي عن الظلم، ثم تحصيل الإحسان بعده بالتطبيق له. أي فلا يجمع بينهما، أي: لا يجمع بين الظلم والإحسان. كما أن لفظة ﴿بَعْدَ﴾ تفيد الترتيب والمغايرة من حال فعل الظلم إلى فعل الإحسان. فمن استبدل بالسيئات ﴿حُسْنًۢا﴾ وهو الخير والطاعة والامتثال، فاجتنب ما كان عليه من السوء ﴿بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ أي: بعد السوء الذي كان عليه استبدله وغيره بفعل الحسنات ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: فأنا ربكم المتصف بمحو الذنوب، وسترها، وكذلك فإن ربكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ أي: كثير الرحمة. لأنها من صيغ المبالغة، فإنني أرحم العباد المستغفرين التائبين.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٨/١٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧٠/٣)

وبما يفيد أن ربكم الغفور الرحيم يغفر لكم ويرحمكم، فعودوا إلى رشدكم. وفي هذا تشجيع المذنب على التوبة، والإقلاع عن الشر، واستبداله بالخير. وهو أعظم وسيلة لإصلاح السلوك من الله الغفور الرحيم سبحانه وتعالى. وهذا من عظيم رحمة الله تعالى بعباده. فالحمد لله تعالى على هذه النعمة الجليلة. فلا يأس ولا قنوط من رحمة الله تعالى مهما بلغت الذنوب مع التوبة واستبدال الشر بالخير.

ثم بعد أن انتهى موسى عليه السلام من معرفة الآية الأولى يتدرج معه التوجيه الكريم إلى آية أخرى، إذ قال الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ وأدخل يدك في داخل ثوبك، من فتحة الثوب أو القميص، وقد ورد في هذه الآية الكريمة التعميم بإدخال اليد في الثوب، وجاء في سورة طه، هيئة الإدخال ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾ والتي أفادت: واجمع يدك اليمنى يا موسى إلى عضدك الأيسر، فتجعلها تحته عند الإبط، فتلصقها به، أي تحت العضد، فيكون الكف تحت العضد المقابل، لأن الضم يعني الجمع مع الإلصاق، والجناح من الإنسان هما جانباه. ثم أوضح تبارك وتعالى العلة والنتيجة من هذا الصنيع ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ فإذا أخرجت يدك من المكان الذي أُمرت بوضعها فيه، فإن يدك تخرج مُتلألئة نوراً ساطعاً، أبيضاً من غير أذى ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أي من غير شيء يشينك، وفي هذا احتراز يفيد التطمين. من أن خروجها بيضاء لا يعني الأذى كالبرص ونحوه، لكنه بياض يبهر الناظرين نوره. فسبحان الله العظيم في قدرته وآياته الجلية الواضحة.

ثم يخبر الله تعالى رسوله موسى عليه الصلاة والسلام: بأن هذه الآية التي هي بياض اليد، وآية العصا هي من ضمن تسع آيات تذهب بها إلى فرعون وقومه ﴿ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ فهذه الآيتان التي هي آية العصا، وآية اليد، ومعهما تسع آيات أخريات هي براهين وحجج لك إلى فرعون وقومه. قال ابن زيد رحمه الله تعالى: قال هي التي ذكرها الله تعالى في القرآن: العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والطوفان، والدم، والحجر، والطمس الذي أصاب آل فرعون في أموالهم[1] وهذا دليل على عظمة قدرة الله تعالى، وأنه يؤيد رُسُلَه بالحجج والبراهين الباهرة، التي لا يصد عنها إلا ظالم لنفسه. ثم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/١٨)

أوضح تبارك وتعالى المقصد من تلك البراهين والحجج ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: مُرسَلاً بهذه الآيات من الحجج والبراهين إلى فرعون وقومه.

ثم وصف سبحانه وتعالى حال فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ خارجين عن الحق بالكفر والبطر والأشر. ودلالة كلمة الفسق، تعني: الخروج عن الشيء، والخروج عن الأصل. مما يدل على تماديهم في الباطل الذي أخرجهم من الحق. بل حتى رفضوه وقاوموه وحاربوه.

ثم يخبر الله تعالى بما كان من فرعون وقومه من الصدود وَرَدِّهم للحجج والبراهين الواضحة؛ التي جاءهم بها موسى عليه السلام ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فعندما جاءتهم الآيات من الحجج القاطعة مع رسول الله موسى عليه السلام ﴿مُبْصِرَةً﴾ ظاهرة، بينة واضحة، بما يفيد شدة وضوحها، لأن كلمة ﴿مُبْصِرَةً﴾ توضح القوة والشدة في الوضوح لمن أبصرها وعاينها، بأنها أدلة وحجج لا يمكن أن تكون إلا ممن فطر السماوات والأرض سبحانه وتعالى رب العالمين، ولكن مِنْ فِسقِهم ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ رموها بالسحر، أي: أن فرعون سحرنا بها. ولا يمكن للسحر أن يكون بحجم هذه الآيات العظيمة، لأن السحر يقع على العين، فتشاهد الشيء على غير حقيقته، مع بقاء الشيء على حاله. ولذلك وصف الله تعالى نكرانهم لها بالجحود ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فقد كان منهم النكران المتصف بالجحود ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ إذ أن الجحود هو نكران الحقيقة التي أيقنتها النفوس، فعلموا بها حق العلم، وأدركوا أنها آيات وليست بسحر، كما قالوا وادَّعَوا، وأن رميهم لها بالسحر لم يكن من واقع ما يعتقدون، بل من أجل أن يجحدوا الحق بها. ولذلك أكد الله تعالى إيقانهم بها ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ فقد أيقنوا إيقاناً جازماً لا ريب ولا شك فيه بأنها آيات من عند الله تعالى.

فكان أنكارهم ذلك هو من باب الظلم ﴿ظُلْمًا﴾ للآيات الواضحة التي أيقنوا بأنها حجج قوية وصريحة. فكان ذلك من باب الظلم للحق، وهو البهت بتكذيب الحق. وهذا الظلم نتيجة حب الاستعلاء ﴿وَعُلُوًّا﴾ فنفوسهم مستعلية بالغي والبطر، إلى درجة أن نفوسهم تتعاظم على الحق، وعلى من أتى بالحق. فلا تقبل أن تنقاد للحق. مما يبين ويفيد أن النفس التي تستعلي بالتكبر، وترى أنها الأفضل والأعلى من غيرها، فإنها تمانع وتمتنع أن تكون تحت سقف الحق، وتتمانع من أن تُطيع الحق وتقبله وتستسلم له. وهذا يؤكد ويبين أن على الإنسان أن يتعلم التواضع، ويحترس من هذه الخصلة التي تحرم الإنسان من الحق.

فتضمنت الآية الكريمة تحقيق وتفصيل كفرهم لآيات الله تعالى بأدق التفصيل والبيان، فبدأ تبارك وتعالى بالنتيجة والمحصلة النهائية لهم، وهي الجحود ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾ ثم انتقل إلى كشف حقيقة علمهم بالآيات وإدراكهم لها إدراكاً جازماً في نفوسهم ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ والإيقان هو تَقَرُّر الحقيقة على ما هي عليه، وثبوتها في قرارة أنفسهم، فلم يَشُكُّوا بأدنى شك فيها، بل اطمأنت نفوسُهم بأنها حجج صادقة، وخالية من كل ريبة وشبهة. ثم تدرج السياق إلى بيان سبب نكرانهم لها، ومقابلتها بالجحود الْمُضَاد ليقينهم من أنها آيات صادقة مبهرة واضحة لا شبهة فيها، فإن النكران وقع منهم لسببين: الأول: ﴿ ظُلْمًا ﴾ أي: الظلم الذي هو الجحود للحق. مما يدل على قوة القسوة في قلوبهم، فلا يمنعهم من الظلم شيء، فلا يهابون مغبته، كما فعلوا مع بني إسرائيل من استعبادهم وإذلالهم. والسبب الثاني: ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ استعلاء النفس على الغير، وعلى الحق، يمنعها من قبول الحق، بل ويتباهى المتعالي برد الحق. مما يفيد أهمية تخلية النفس من هاتين العلتين، وتربيتها وتحليتها بالتواضع للحق.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بالنتيجة التي أهلكتهم، مقابل ظلمهم واستعلائهم على الحق الواضح المبين ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ وهنا يلفت سبحانه وتعالى انتباه العباد إلى ما فيها من عبر، وذلك بتوجيه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالنظر والتأمل في عاقبة المفسدين ﴿ فَٱنظُرْ ﴾ فتأمل ببصيرتك، وفكرك وعقلك ﴿ كَيْفَ ﴾ هي مجريات أحداثهم مع الآيات الباهرات المتتالية، وما حصل لهم من العقوبة. وكلمة ﴿ كَيْفَ ﴾ هنا ليست استفهام وسؤال، بل وردت في سياق توجيه النظر إلى إدراك الدروس من منهج وعلل وأسباب ومحصلات ذلك الكفر والعناد بالظلم والاستعلاء على آيات الله تعالى. وردهم الحق الذي أيقنته نفوسهم، ثم إدراك النتيجة والمحصلة. وكيف أن الإنسان يبخس ويخسر الحق والخير لأسباب قاصرة، تهدم حياته، وتهدم مستقبله في الآخرة، على الرغم من نعمة العقل التي لم يوظفوه ويستخدموه فيما خُلِق له. وكذلك بالرغم من قوة الحجج التي يشاهدونها ويعاينونها بأبصارهم وبصائرهم وفكرهم وعقولهم إلا أنهم معاندون مكابرون، فتأمل في عاقبتهم ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ فتأمل كيف كانت عاقبة المفسدين الذين أفسدوا في الأرض، ولم يَقبَلُوا الحق. فأهلكهم الله تعالى بالغرق في البحر.

مما يفيد أهمية التأمل والتفكر في مجريات الأحداث الماضية للأمم السابقة، وأيضاً لمجريات الأحداث الحاضرة على مستوى الأمم، وعلى مستوى الجماعات، وعلى مستوى الأفراد، فإن مليئة بالعبر والدروس، والمواعظ العظيمة لمن تأملها وعقلها. فآيات الله تعالى في تدبيره عميقة في مواعظها. وهذا يفيد تربوياً أهمية تربية وتعويد النفس والنشأ وغيرهم على التأمل والتدبر والتفكر، بالنظر، وبالاستماع، وخاصة تدبر القرآن الكريم،

في قصصه، وفي مواعظه، وترهيبه، وترغيبه، وفي أحكامه، وفقهه وتشريعه، فإنه المسلك والطريق إلى تنوير العقل بالحق، وبمحاسن التدبير المُوصِل إلى خير الدنيا وسعادة الآخرة. اللهم علمنا وارزقنا العمل الصالح الذي يوصلنا إلى رضاك، وإلى جنات النعيم.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

وبعد أن عرض تبارك وتعالى موجزاً عن امتنانه على موسى بالرسالة، والآيات العظيمة إلى فرعون وقومه، يذكر سبحانه وتعالى شأن امتنانه على عبده ونبيه داود وابنه سليمان عليهما السلام؛ بما منحهم من العلم الغزير، والفضل الكريم، وشكرهما لله تعالى بما فضلهما على كثير من المؤمنين. وسليمان هو ابن داود عليهما الصلاة والسلام، وورد ذكرهما في سورة الأنبياء، وسورة سبأ. فقال تعالى عنهما في هذه السورة ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيذكر عزَّ وجل كريم امتنانه على النبيين الكريمين: داود وسليمان عليهما السلام بالعلم والفضل الواسع ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾ فبدأ البيان الكريم بفضل العلم وشأنه، ليدل على مكانة العلم ومعزته وفضله، وأن من امتن الله تعالى عليه بالعلم فقد امتن عليه بجزيل العطاء. كما بدأ النص الكريم بحرف التحقق، ولام القسم ﴿ وَلَقَدْ ﴾ الذي يفيد تأكيد تحقق ما بعده من البيان، وهو إتيان داود وابنه سليمان العلم ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾ وأفاد الإتيان ﴿ ءَاتَيْنَا ﴾ الامتنان بالعطاء من غير جهد لتحصيله.

وجاء العلم هنا نكره ﴿ عِلْمًا ﴾ ليفيد التعظيم، والكثرة والتنوع. ومع تعظيمه فقد ورد مُفرَداً، ليفيد عظمة هذا العلم وتنوع محتواه، إلا أنه علماً من علم الله تعالى العظيم الواسع الذي لا تستوعبه الخلائق لو اجتمعت. فكان سياقها غاية في دلالة مقصدها، وقوة بيانها، وبلاغة مرادها. ويدل ويفيد هذا العطاء من العلم

على شرف العلم ومكانته وفضله. ومن ذلك العلم الذي تفضل الله تعالى به عليهما هو: علم الدين، والقضاء والحكم، ومعرفة كلام الطير والدواب، وصنعة الدروع لتحصين العباد من بأسهم، وتسبيح الجبال والطير، وتسخير الجن ومخاطبتهم، وأمرهم ونهيهم، وغيرها مما أنعم الله تعالى به من الملك العظيم.

وكان تعاملهما مع تلك النعم بالحمد والشكر لله تعالى على هذا الإنعام العظيم ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهو الشكر والثناء على الله تعالى ﴿ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالشكر لله تعالى بما فضلنا به من النبوة والكتاب، وهو الزبور. وما أعطانا من الدين، وعلم الشريعة، وتسبيح الجبال والطير، ومعرفة لغة الطير والدواب، وسماع كلام النملة، وهي تخاطب بقية النمل بأن يدخلوا مساكنهم، خشية أن يحطمهم سليمان وجنود من كثرتهم أثناء مسيرهم. وتسخير الجن، والحكم والقضاء، وغير ذلك من أنواع العلم والتسخير الذي وهبهم ربهم إياه. مما يبين أن مِن العلم ما هو موهوب من غير سعي لتحصيله، كالقدرة على الفهم والاستنباط والتحليل والاستنتاج، والتفاوت فيه بين أهله. فيقولا: الحمد لله الذي فضلنا بما خصنا من العلم دون الكثير من الخلق. ويستفاد من قولهم ﴿ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنهما نسبا العلم والتفضيل إلى الله تعالى ﴿ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ مما يبين أن مَنْ أنعم الله تعالى عليه بنعمة أو أكثر كالعلم أو المال، أو الجاه أو غيرها، فلينسبها إلى الله تعالى الذي تفضل عليه بها. كما يفيد ذلك أن الفضل والتفضيل لله تعالى، فيعز من يشاء، ويذل من يشاء. فليطلب المؤمن من الله تعالى مراده، ويشكره على ما أنعم به عليه.

ثم قالا ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليس على الناس أجمعين، بالرغم من أن بعض ما آتاهم لم يحصل لغيرهم. ولكن لأدبهم وتواضعهم قالا بذلك. وأوردا التفضيل على سبيل التخصيص، بينهم وبين المؤمنين، وليس بينهم وبين عموم الناس، لأن المؤمنين صفوة الناس، فهم الذين صَدَّقُوا وآمنوا، وعملوا الصالحات. فالتفضيل كان من بين الفئة الفاضلة الذين هم أهل الإيمان. وفيه بيان وإثبات أن المؤمنين أهل فضل من الله تعالى، وفَضّلَهُمَا الله تعالى على كثير من صفوة الناس، وهم المؤمنين. وفي هذا مدح للمؤمنين بما فضلهم الله تعالى به من الفضل والإكرام، وكل بما أعطاه الله تعالى من الفضل. قال السعدي رحمه الله تعالى: فحمدا الله تعالى أن جعلهما من المؤمنين أهل السعادة، وأنهما كانا من خواصهم. ولا شك أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون، ثم فوقهم الأنبياء[1] قال تعالى في سورة النساء ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣/٤٩٨)

وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ وهذا كرم من الله تعالى عليهما.

ثم يذكر تبارك وتعالى استمرار النعمة بتوريثها من الأب داود إلى الابن سليمان عليهما السلام ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ فلما أن المراد إظهار قصة سليمان بمقدمة، أوضح الله تبارك وتعالى فيها فضل النبيين: الوالد وابنه، ثم انتقل البيان إلى حال سليمان بن داود عليهما السلام. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: طُوي خبر مُلك داود وبعض أحواله إلى وفاته، لأن المقصود سليمان عليهما السلام. وقد كان داود ملكاً على بني إسرائيل، ودام ملكه أربعين سنة، وتوفي وهو ابن سبعين سنة[١] وقال ابن عطية: داود من بني إسرائيل، وكان ملكاً، وورث سليمان ملكه والنبوة، بمعنى صار إليه ذلك بعد موت أبيه، فَسُمّي ميراثاً[٢] وبعد وفات داود عليه السلام وَرِثَهُ ابنه سليمان عليهما السلام ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: في الملك والنبوة، وليس المراد وراثة المال، إذ لو كان كذلك لم يُخَص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود. فإنه كان لداود مائة امرأة، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة، فإن الأنبياء لا تُورَّث أموالهم، كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله (نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة) [٣] وقال الكلبي رحمه الله تعالى: كان لداود عليه السلام تسعة عشر ولداً[٤] مما يبين أن لداود عليه السلام عدداً من الأولاد، والذي يُستبعد به وراثة المال دون بقية الإخوة، فلا يمكن أن يخالف منهج الأنبياء، مما يفيد أن الله تعالى خص سليمان بميراث الملك والنبوة عليه السلام.

بل من دقة البيان أنه لم يقل سبحانه وتعالى: وورث سليمان أباه، على جهة العلاقة الوالدية والنسب التي يلتزم فيها أن يكون الميراث قسمة بين الأبناء، بل ورد البيان بصيغة أو بصفة الأسماء ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ لإفادة أن الوراثة المقصودة أخص من وراثة النسب التي يشترك فيها الإخوة، فهي متعلقة باصطفائه للنبوة والملك كما اصطفى الله تبارك وتعالى والده بالنبوة والملك. وهذا من دقائق الإعجاز في البيان، لقوة دقته.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٤٧/٨)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٠/١٣)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧٠/٣)
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٠/١٣)

ثم يخبر الله تعالى بحديث سليمان عليه السلام في مخاطبته للناس بما خصهم الله تعالى من عظيم الإنعام ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾ فمن باب التحدث بِنعَم الله تعالى، على سبيل الشكر، وإظهار ما خصهم به من آيات الإعجاز، يقول نبي الله سليمان للناس ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداء يفيد لفت الانتباه لهم، وشدهم نحو استماع ما سيقوله لهم، وبدأ بالنعمة التي انفردوا بها عن غيرهم، وهي: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ قد عَلَّمَنَا اللهُ سبحانه وتعالى بفضله ومَنّه معرفة لغة الطير ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ بما يفيد أن صوت الطير هو منطوق لغوي بينه وبين بقية الطيور التي من جنسه، فيتحدثون فيما بينهم، ويتخاطبون بتلك الأصوات التي لا يدركها غيرهم، ولذلك ورد تسميته بدلالة ﴿مَنطِقَ﴾ على جهة النطق الذي يعرفه سليمان من صوت الطير. وفي إفراد الطير ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ ما يفيد جنس الطير، أي جميع أنواع الطيور، فعلى اختلافها وتنوعها فإنها معروفة، ومعلومة عند سليمان عليه السلام. وورد التعليم بصيغة الفعل الذي لم يُذكَر فاعله ﴿عُلِّمۡنَا﴾ لإظهار عظمة هذه النعمة، ولشد الانتباه إلى فضل وخصوصية هذا العلم الذي لا يمكن أن يكون إلا ممن خلق وأعطى، لاستحالة أن يعرف البشر لغة الطيور.

وورد قوله ﴿عُلِّمۡنَا﴾ بصيغة الجمع، بالرغم من أن غيره لا يعرف لغة الطير. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وجاء سليمان بنون العظمة، والمراد نفسه، بياناً لحاله من كونه مطاعاً، لا يُخَالَف، لا تكبراً، ولا تعظيماً لنفسه[١] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: إما لقصد التواضع، كأن جماعة عُلِّمُوا وأُوتُوا، وليس هو وحده، وإما لأنه المناسب لإظهار عظمة الملك، وفي ذلك تهويل لأمر السلطان عند الرعية، وقد يكون ذلك من مقتضى السياسة في بعض الأحوال[٢] ولعل مقتضيات الملك تتطلب صيغة الجمع، فَلِلمُلك أحكامه وسياسته التي ينبغي أن يَظْهَر بها الملك، في هيبة الخطاب، وهيبة المركوب، وهيبة اللباس. مما يفيد أهمية التفريق بين التعاظم الذي مبناه الكبر والتعالي، وبين الاحتفاظ بهيبة الملك، من خلال النظرة العامة، وذلك بجمع جميع أحوال الشخصية التي توضح وتنير كمال التصور وحقيقته. ومما ينفي قصد التعاظم لذاته هو تزكية الله تعالى لسليمان ووالده داود عليهما السلام، في شكرهما لربهما تبارك وتعالى ﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ وهو الشكر والثناء على الله

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٣٠/٤)

(٢) ابن عاشور، التنوير والتحرير (٤٥٠/٨)

تعالى، ونسبا ما هم فيه من النعمة إلى الله تعالى ﴿ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المتفضل عليهم بما أفاض. مما ينفي عن سليمان عليه السلام قصد التعاظم الذي سببه وباعثه الكبر.

ثم تلى ذلك البيان عن فهمه لمنطق الطير أن أجمل للناس مُجْمَل النِّعَم التي لا حصر لها ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ فقد أعطانا الله سبحانه وتعالى من كل شيء، على سبيل الإجمال الذي يفيد كثرتها وتنوعها، فلا يمكن حصرها وتفنيدها: من الملك والنبوة والحكمة والقضاء والمال، وتسخير الجن والطير والرياح والدواب. وأورد ما أعطاه الله تعالى بصيغة الجمع ﴿وَأُوتِينَا﴾ حفظاً لهيبة الملك، ولا يمنع أنه من باب التواضع، بأنه هو وغيره من العباد قد أعطانا الله تعالى وأعطاكم من عموم الأشياء التي لا حصر لها، وما خصنا به دون غيرنا. ولا يمنع كذلك أن يكون المراد هو الجمع بين الوجهين. كما أورد الإعطاء بصيغة الفاعل الذي لم يُذكر فاعله ﴿وَأُوتِينَا﴾ فينطبق عليه ما ينطبق على القول السابق ﴿عُلِّمْنَا﴾ ثم يؤكد أن مصدر ذلك العطاء هو من الله تعالى، حيث نسب ما عنده إلى تَفَضُّل الله تعالى عليه.

وجملة ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ تفيد حُسن المنطق، إذ لم يقل: وأوتينا كل شيء، بل ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ لتفيد عظمة وكثرة ما عند الله تعالى، وبأن ما أعطاه الله تعالى من فضله العظيم ما هو إلا أشياء من كل شيء، والتي لا حصر لها. وكذلك في جملة ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ تعظيم لما أعطاه الله تعالى، كما أفادت وبينت عظيم كرم الله تعالى، وعظيم عطائه. قال جعفر بن محمد عن أبيه رحمهم الله تعالى: أُعطِيَ ملك مشارق الأرض ومغاربها، فَمَلَكَ سبعمائة سنة وستة أشهر، ومَلَكَ أهل الدنيا كلهم، من الجن والإنس، والشياطين والدواب، والطير والسباع، وأُعطي علم كل شيء، ومنطق كل شيء، وفي زمانه صُنِعَت الصنائع المعجبة، وذلك قوله ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾[١] وأن هذا العطاء آية من آيات الله عَزَّ وجل الباهرة، من تكليم الطير، ومن تسخير الجن، وملك لا ينبغي لأحد من بعده، وغيره من عظيم وتنوع العطاء.

ثم وصف هذا العطاء بجميل الوصف ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ إن هذا العطاء الكثير، المتنوع والمتعدد ﴿لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ فإنه الفضل الواضح والظاهر الْمُتَجَلِّي الذي لا يخفى على أحد. وقد ذكر وعين هذا العطاء بجملة ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الذي أُعْطِينا، فاشتملت الجملة على نون التوكيد، واسم الإشارة

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦٠/٦)

العائدة على ما آتاه الله عَزَّ وجل. كما حصر وأكد الفضل بقوله ﴿ لَهُوَ ﴾ بأنه من الله تعالى، وليس بجهد، ولا بسبب مِنَّا، بل أعاد الفضل لله تعالى تفضلاً وتكرماً منه عَزَّ وجل ﴿ لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ﴾ واصفاً لهذا الفضل بقوة الظهور الذي لا يغيب عن أحد ﴿ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ فهو بائن في وضوحه، بأنه زيادة ظاهرة على ما أعطى غيرنا. وهذا يفيد أن التحدث بالنعمة الظاهرة على سبيل الشكر لله تعالى أمر محمود إذا ابتغى بذلك تعليم الناس بأن النِّعَم كلها عطاء من الله تبارك وتعالى. وأن واجب العبد شكرها، واستخدامها في الحق الذي تتحقق به الطاعة والامتثال لله رب العالمين.

ثم يذكر سبحانه وتعالى المزيد من إنعامه على نبيه سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ وأن مما تفضلنا وأنعمنا به على سليمان أن جُمِع له جنوده الكثيرة المتنوعة من الجن، ومن الإنس، ومن الطيور، وهم مجموعون على أرفع وأعلى غاية من الانتظام والترتيب في جميع الشؤون. بحيث لا يتجاوز كل أحد منهم منزلته، وما أُوكِل إليه، وما هو مأمور به، وما هو مسؤول عنه. بما يفيد امتناع الفوضى بينهم، والاضطراب فيهم. وورد بيان جمع الجنود بأسلوب الفاعل الذي لم يُذكر فاعله ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ ﴾ لإظهار القوة، وإشغال الذهن في تصوره وتدبره لهذا الحشر، وتعظيم هيئة الحشر، وهذا الإنعام مخصوص به سليمان عليه السلام، فهو المحشور له الحشر المخصوص من الأعيان والأجناس المذكورة ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ ﴾ والمحشورون هم ﴿ جُنُودُهُۥ ﴾ ووردت بصيغة الجمع، لإفادة كثرتهم، كما أن كلمة جنوده، تفيد أنهم قوته التي تنقاد له طواعية، وتأتمر بأمره، وتنتهي بنهيه.

ثم أورد البيان تنوعهم بحسب الجنس ﴿ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ ﴾ فجنس الإنسان يشمل بني آدم، وجنس الجن يشمل شياطين الجن من المردة وغيرهم. وكذلك جنس الطير، الذي يشمل جميع أنواعها وأشكالها التي لا حصر لها. وهذه المذكورات هي أشهرها باعتبار كثرتها، وكثرة خدمتها، وإلا هناك الحيوانات، والرياح التي سُخِّرت له عليه الصلاة والسلام.

ثم أخبر تبارك وتعالى بقوة توزيعها وانتظامها ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ فهم مُنَظَّمُون منتظمون تنظيماً غاية في الدقة التي تمنع عنهم الفوضى، وتمنعهم عن تعدي ما هو موكل لكل أحد منهم. لأن كلمة ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ من وَزَعَ، بمعنى: كَفَّ. قال الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى: يُقال: وزعته عن كذا كففته عنه، فقوله

﴿ يُوزَعُونَ ﴾ إشارة إلى أنهم مع كثرتهم لم يكونوا مُهملين ومبعدين[١] فهم منظمون تنظيماً يَكُفُّهُم ويمنعهم عن مجاوزة كل واحد منهم ما هو مُكَلَّف به. بحيث لا يتعدى أحد على أحد بخلاف ما كُلِّف به. ليدل على قوة الطاعة والامتثال، والهيبة لسليمان عليه الصلاة والسلام بما سخره الله تعالى له. مما يفيد في تنظيم الدولة وعموم أعمال الإدارة أهمية تحديد المسؤوليات، وتحديد الواجبات تحديداً دقيقاً بما يمنع التداخل والتجاوز، وبما تنتظم به شؤون الدولة والرعايا من الناس وغيرهم. وأهمية ضبط التصرفات، بأن لا يتعدى أحد من الجنود أو الموظفين حدود ما هو مُكَلَّف به. وهذا الانتظام والتنظيم يحقق استقرار الدولة، واستقرار الناس، وانضباط الحياة، وسلامتها من التعدي. وبما يفيد أنه إذا فُقِد الانضباط بوسائله وأنظمته، وقوته، انهارت حياة الأفراد، وانهارت الدولة، وسادت الفوضى.

ثم يُخبر الله تعالى بدقائق ما حصل في ملك سليمان من الآيات العظيمة، في المُلك العظيم الذي وهبه الله تعالى لسليمان عليه السلام، فقال عَزَّ وجل ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ حتى إذا وصل سليمان عليه الصلاة والسلام مع جيشه العظيم، الذي من كثرة أعداد جنده، أن خافت نملة من النمل، وهابت الجيش خوفاً من أن يدمرها ويدمر غيرها من النمل بالمشي عليهم وهم لا يعلمون بهم فيموتوا من الوطء عليهم، فنصحتهم بدخول مساكنهم حفاظاً على سلامتهم من الموت، ملتمسة لسليمان وجنوده العذر، بأنهم يمشون علينا وهم لا يعلمون بنا من كثرة جحافلهم التي يغطي بعضهم على بعض.

وابتدأ البيان الكريم بحرف ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ لإفادة الغاية، بأنه عند الانتهاء والوصول إلى وادي النمل، كما أفادت ﴿ إِذَآ ﴾ معنى: الوقت، وهو الحين. وأفادت كلمة ﴿ أَتَوۡاْ ﴾ أي: أشرفوا وصولاً، أي: وصول سليمان وجنوده عليه الصلاة والسلام ﴿ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ ﴾ أي: وصولاً إلى مشارف وادي النمل، الذي هو مسلك من مسالك تجمعات النمل، ليتبين أنه من كثرة النمل في هذا المكان وكأنه بالنسبة لهم وادٍ للتجمع، كالأودية بالنسبة للبشر. وفي هذا دقة في تحقيق المعنى وإظهاره للمُخَاطَب بصورة وكأنه يعايش ويرى الحدث، وهذا من بلاغة القرآن العظيم في نقل الحدث، كأن الْمُخَاطَب يراه ويعايشه بالمشاهدة. والنملة حشرة صغيرة تدب على الأرض، معروفة بالتقاطها صغار ما هو موجود في الأرض من بقايا الطعام، أو الثمار المتساقطة، ونحوه.

فلما شارف الجيش عليهم، وانتبهت له نملة، أو انتبهوا جميعاً، ولكن نملة منهم بدأت بمخاطبتهم نصحاً وحفظاً لأخواتها من الأذى والموت ﴿ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ ﴾ نصحت هذه

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٥٢١-٥٢٢)

النملة بقيت النمل بأن يحذروا خطر مرور الجيش، وذلك بأن يدخلوا مساكنهم من الجحور والشقوق. مما يبين أن النمل يتخذ له مسكناً يأوي إليه للراحة والوقاية من المخاطر. ثم عللت وبينت سبب أمرها لبقيت النمل ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ تفادياً من تحطيم سليمان وجنوده لهم، والحطم هو التكسير، من باب المبالغة في التخويف مما هو قادم عليهم. وفي هذا آية عظيمة، إذ كيف عرفت هذه النملة سليمان؟ بما يفيد أن الله تعالى قد عَرَّفَهم به، فأصبح كل شيء يعرف سليمان من الحيوان والدواب والطيور والرياح والإنس والجن. وكذلك عرفت قوته، وكثرة جنوده الذين معه، وقوتهم الضاربة في الأرض. فسبحان من سخر وعَلَّم خلقه بما يشاء، وقت ما يشاء، فالحكم والملك له جَلَّ جلاله.

بل بلغ من فهمها أن نفت عن سليمان وجنوده البغي والتعدي، فعللت حدوث تحطيمهم من قبل سليمان عليه السلام وجنوده هو لعدم علمهم بتواجدهم ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بما يفيد أنه لو شعروا وعلموا بنا لتجاوزنا بالتنحي عنا من غير إيذاء لنا، وامتنعوا من أن يُلْحِقُوا بنا الضرر. مما يدل ويفيد أنه شاع عندهم عدل نبي الله سليمان عليه السلام، وبُعده عن الظلم حتى لأصغر الأشياء التي هي النملة. وقد يكون إلهام من الله تعالى لهم. وهذه غاية المبالغة في تحري العدل، وتحقيق الأمن، وعدم إلحاق الذعر والأذى بأصغر المخلوقات، فصلى الله عليه وسلم من نبي كريم عادل في ملكه وحكمه، ورعايته لمن هم تحت ملكه وولايته. مما يعطي أهمية حفظ الحقوق، وأهمية تحقيق الحياة للأحياء، فإذا كان هذا مع نمل قد عرف عنه منعه للظلم وتوخيه له، فكيف في تعامله مع الناس وغيرهم ممن هم تحت حكمه وسلطانه. فإن في حكم سليمان عليه السلام دروساً وعبراً. وإذا تم ربط طُول زمن حكمه مع عدله، تبين أثر العدل على استمرار الحكم.

ثم يخبر الله تعالى بنعمة أخرى، وبآية وحدث عظيم، بسماع سليمان عليه السلام خطاب النملة لغيرها من بقية النمل، وحينها كان التعجب بالتبسم من سليمان عليه الصلاة واسلام ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ فتعجب نبي الله سليمان عليه السلام من قولها الذي اشتمل على نصحها لبقية النمل، وحرصها عليهم من الموت والتحطيم، ومعرفتها لنبي الله سليمان وجنوده، والتماسها العذر فيما لو حصل شيء من الهلاك لهم ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ فتبسم متعجباً مما قالت. فكان علة تبسمه ضاحكاً هو قولها. وكانت صفة تبسمه ﴿ ضَاحِكًا ﴾ فجمع بين التبسم والضحك. فكأنه انتقل من التبسم تعجباً إلى أن ضحك من مجموع ومُجمَل كلامها، والتبسم من مقدمات الضحك، ولذلك تقدم على الضحك، فجمعت هيأته وحاله عليه السلام بين التبسم والضحك. وذكر الشوكاني رحمه الله تعالى أنه: قيل: لما

كان التبسم قد يكون للغضب، كان الضحك مبيناً له. وقيل أن ضحك الأنبياء هو التبسم لا غير[١] فتبين من ذلك البيان أن الضحك كان صفة للتبسم، وأن الضحك كان من الدرجة الملتصقة بالتبسم، فانتفت عن هيئة ضحكه القهقهة، فلم يكن ضحكه إلا على سبيل التبسم. بما يفيد إعجابه الناتج عن فهم النمل، ونصحهم لبعضهم البعض. وهذا من بلاغة البيان في تحرير الوصف بما يعجز عن مثله الإنسان.

وهنا زاد استشعار نبي الله سليمان عليه السلام للنعمة، فتفاعل معها بقلبه ولسانه، داعياً ربه سبحانه وتعالى بدعاء شامل لكمال النعمة وجلالتها وعظمتها ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فبدأ دعاءه بطلبه من الله تعالى أن يعينه ويوفقه على شكر ما أنعم به ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ يا رب ﴿ أَوْزِعْنِيٓ ﴾ ألهمني وحفزني بما يجعلني مهتم ومُولع بأن أحمدك كثيراً على نعمتك التي غمرتني ووالدي بها. فاجعلني ملازم لشكرك بالحمد والثناء عليك يا رب. وامنعني من أن أنسى شكرك، أو أن ينسيني شيء عن شكرك، أو قلة حمدك والثناء عليك. مما يفيد أن الإنسان يحتاج ويفتقر إلى معونة الله تعالى له في دفعه وتحفيزه بالشكر والحمد والثناء على الله تعالى. ليتجنب بمعونة الله تعالى نسيان الشكر. لأنه بالحمد والشكر تزداد النِّعَم. ولأن الشكر عبادة، يُثاب فاعلها، وهي من مفردات الذكر من التسبيح والتهليل والتكبير. ومن وفائه لأبويه أن أدرجهما معه فيما حصل لهما من الإنعام، فأبوه داود نبي من الأنبياء عليه السلام، وأمه زوجة نبي، تحظى من الإنعام بما حظي به زوجها داود عليه السلام. مما يبين عظمة هذا الدعاء وأهميته.

ثم سأل الله تبارك وتعالى ما هو متعلق بطاعته لربه عَزَّ وجل ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ وأن تعينني وتوفقني يا ربي لأعمل الأعمال الصالحة التي ترضيك، وبما يفيد أن تجنبني الأعمال التي لا ترضيك. وهو دعاء شامل للإتيان بالطاعة والبعد عن المعصية. ثم ختم الدعاء بسؤال مصاحبة الصالحين في الآخرة ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فيتوسل إلى الله تعالى برحمته، وليس بعمله أن يجعله في جملة الصالحين ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ ﴾ فبرحمتك ولطفك أدخلني ﴿ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فاجعلني في جملتهم، فأكون واحداً منهم بفضل إدخالك وضمي إليهم، أي: إلى فئة عبادك الذين اصطفيتهم بالصلاح، فيكون مأواهم الجنة، وليس بعملي وجهدي. ليتبين من ذلك أن الإنسان مهما عمل من الطاعة، فإن التقصير متلبس به،

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٣١/٤)

لأنه عاجز عن الوفاء بما أنعم الله تعالى به عليه من النِّعَم التي تغشاه ليل نهار، ولا يحصيها ولا يحدها بحد من كثرتها، وتتاليها عليه إلا الله سبحانه وتعالى، فيسأل الله جَلَّ في علاه أن يعامله بفضله وكرمه وإحسانه. اللهم ربي أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت بها عليَّ وعلى والدي، وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين، والمسلمين أجمعين.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾

ثم ينتقل البيان إلى إخبار الله تعالى بنعمة أخرى، وبآية وحدث عظيم مع سليمان، وهو تحدث طائر الهدهد مع نبي الله سليمان عليه السلام، فكما سمع كلام النملة التي تحدثت لرفيقاتها بما في الآيات السابقة، تحدث أيضاً مع الهدهد ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾

فمن حرص سليمان عليه السلام وضبطه لملكه الذي وهبه الله تعالى له أن تفقد الطير ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ أي: تفقد جنس الطير جميعاً، والتفقد هو طلب معرفة أحوال من غاب عمن حضر. مما يدل على حرصه وضبطه لمن تحت ولايته، حتى أنه يتفقد كل شيء، فيتأكد من وجوده، أو التأكد من أداء ما هو مُكَلَّف به من مسؤوليات، ومنها أنه نظر وطلب ما غاب عنه، وهو معنى التفقد. ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ والهدهد هو من جنس الطير. بما يفيد أن جميع جنس الطيور موجود من يمثلهم إلا الهدهد الذي يُمثل جنسه. ويبين هذا أهمية التفقد في الجانب الإداري، وجانب الحكم، والسؤال عمن غاب، لِمَا في ذلك من إشعار المسؤولين من الأعوان والموظفين والجند بقوة المتابعة. وبما يفيد أهمية المتابعة في انضباط الأداء، والاستمرار عليه. فلم ير نبي الله سليمان الهدهد في مكانه، فتساءل تساؤل استنكار وتعجب من عدم وجود الهدهد مع الموجودين. أهناك حائل وساتر حال دون رؤيته؟ أو أخطأ بصره رؤيته؟ فلا يراه مع الحضور. فما هو السبب في عدم رؤيتي له. وهنا لم يجزم بغيابه، بل جزم بعدم تحقق الرؤية له. وفي هذا دقة في الكلام، والضبط، والتحقق من الأمر بالسؤال الذي يُظهر له حقيقة الأمر، التي ربما تكون غائبة عنه، كما يفيد ذلك حلمه وتأنيه وعدم التسرع منه عليه الصلاة والسلام في الأمر.

فبعد أن كان السؤال خاص عن عدم الرؤية ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ امتد وانتقل التساؤل إلى الاحتمال الآخر غير الحائل والساتر للرؤيا ﴿أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ أي: حصول الغياب من الهدهد والتأخر عن الحضور، فورد التساؤل لأجل التأكد والتثبت ﴿أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ أو هو غائب عن مكانه من بين جنس بقية الطيور. وأفادت جملة ﴿مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ أن هناك غياب غيره، فليس هو وحده فقط الغائب، بل هو واحد منهم. وفي عدم تساؤل سليمان عن غيره من الغائبين، ما يدل على أن غياب غيره معروف لديه بما هم مُكَلَّفون به، إذ وقع العتاب على الهدهد باعتبار أنه لم يكلفه بما يتطلب ويستوجب غيابه، أو أنه تأخر عما كُلِّف به. وقال بعض أهل التفسير أن ﴿أَمۡ﴾ تفيد الإضراب، بمعنى: بل هو غائب. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: هو استفهام عن المانع له من رؤية الهدهد، كأنه قال: مالي لا أراه؟ هل ذلك لساتر يستره عني، أو لشيء آخر؟ ثم ظهر له أنه غائب. فقال: أم كان من الغائبين، وأم هي المنقطعة التي بمعنى الإضراب[١] أي بمعنى بل. بل هو من الغائبين.

وهناك وجه آخر وهو مرجوح بما قبله، ولكن إيراده من باب فائدته. أن ﴿أَمۡ﴾ تفيد التسوية بين الاحتمالين، بما يفيد عدم الجزم بغيابه أثناء تساؤله، فيكون من عدله أنه لم يحكم بغيابه قطعاً، بل أورد أنه لا يراه، فهل هو موجود مع وجود حائل بيني وبين أن أنظره وأراه، أو كان من الغائبين. فأفادت ﴿أَمۡ﴾ تسوية الاحتمال بين الوجود وعدمه، أي: أفادت الاحتمال، والخيار الممكن في تفسير عدم رؤيته. فإما أن يكون هناك حائلاً وساتراً حجب رؤيته، أو أنه غير موجود فعلاً. فلما لم يجد جواباً من الهدهد عرف بعدم وجوده. فقال معاقباً له ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ فتوعد نبي الله سليمان الهدهد بالحكم الذي سيناله به، وهو إيقاع العذاب الشديد عليه، الذي ليس بالهين.

وجاء حكمه بقوة الحزم والجزم ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ فتصدرت بلام القسم التي تفيد التأكيد، وكذلك بنون التوكيد. ثم أورد العذاب بصيغة النكرة، ليفيد التهويل لنوع العذاب. ثم ازداد التأكيد بتكرار كلمة ﴿عَذَابٗا﴾ الذي يُسمَّى مفعول مطلق، الذي يفيد التأكيد. ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا﴾ وورد كذلك العذاب نكره، إذ لم يبين نوعه، ولكن أوضح وبين صفته بأنه ﴿عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ ليكون أكثر رهبة وهيبة للهدهد، ولمن يسمع من

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٣١/٤)

جنوده وحكومته، فيدركون حزمه وشدته في تنفيذ مسؤوليات ومتطلبات الحكم. فقد جمعت شخصية سليمان عليه السلام بين العدل والرحمة وبين الحزم والضبط التي هي أساس نجاح الحكومة، وأساس استتباب الحكم والأمن والعدل.

ثم جعل خياراً ثانياً في الحكم عليه بالعقوبة، أشد من الخيار الأول ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ بأن يقضي عليه نهائياً بالقتل على غيابه دون سبب وجيه، يرتضيه سليمان عليه السلام. ثم جعل خياراً ثالثاً، يُبعد عن الهدهد الحكم بعقوبة العذاب، أو عقوبة القتل، وذلك إن كان غيابه في أمر مهم، يقتضي ويتطلب غيابه. وهو ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أو يأتي بحجة وسبب ظاهر وبارز يعفيه من أحدى العقوبتين. ويظهر من هذا الحكم عدله بقبول العذر القوي الظاهر، وهو أن يكون ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: توفر موجبات الاستثناء، الذي لا لبس فيه، عن سبب غيابه الذي لا يعلم سليمان شيئاً عن علته. وفي الاستثناء من العقوبة حال توفر موجبات الاستثناء هو دلالة عميقة على حكمته، وتسديد الله تعالى له في القضاء والحكم. وأنه لا يظلم أعوانه وجنده، ومن هو تحت حكمه. كما أنه أظهر حزمه وشدته في إدارة الحكم، مما يعلم أن سياسة الدولة تحتاج إلى الحزم والعزم. وأن الحاكم والمسؤول والقائد الناجح هو الذي يضع كل شيء موضعه، فيجمع بين العدل والرحمة، وبين الحزم، وتطبيق النظام. وغرس الهيبة في نفوس الآخرين، حتى يمنع الانفلات، ويمنع حدوث الخلل.

ثم يخبر الله تعالى بشأن الهدهد عندما كان غائباً ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ فغاب الهدهد زمناً ليس بالطويل من حين تفقد سليمان له ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ بمعنى أن سليمان عليه السلام مكث زمناً يسيراً، غير بعيد من حين تفقده للهدهد. فإذا بالهدهد قد حضر ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ فقال الهدهد مباشرة لسليمان عليه السلام، قد أحطت بشأنٍ وأمرٍ لم تعلمه، إذ لم يأتيك نبأه وشأنه. وفي هذا تشويق من الهدهد لسليمان عليه السلام، ولبيان اجتهاده وحرصه على خدمة نبي الله سليمان، وتقديم الأخبار المهمة له. كما يفيد هذا الخبر: تقديم مفاجأة قد خفيت على سليمان عليه السلام، بما يعطي انطباعاً بأنَّ الأصل في علم سليمان هو الإحاطة بما مَنَّ اللهُ تعالى عليه من شأن البلدان، بدليل الاستثناء من الأصل هو العلم ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ فدل على أنه استثناء من عموم علم سليمان عليه السلام، بمفاجأة الهدهد لسليمان بهذه الإحاطة الغير معروفة ومعلومة عند سليمان عليه السلام.

ثم كرر عامل التشويق بتقريب ما أحاط به، دون كمال الإفصاح ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ فانتقل من قوله ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ إلى ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أي: وأتيت إليك من بلاد سبأ بخبر ﴿ يَقِينٍ ﴾ أي: مؤكد، لا لبس ولا شك فيه. فقد أفْهَمَ اللهُ تعالى الهدهد هذا الأسلوب في الإخبار المشوق. كما يفيد هذا أنه مهما أُوتي الإنسان من العلم فإنه قد يغيب عنه غيره. وقد يأتي الأدنى والأقل علماً بما لا يعلمه العالم أو الأكثر علماً. وأن واجب الإنسان أن يتعلم من غيره، مهما قلت معرفته، فقد يُوقِفُه اللهُ تعالى على مالم يقف عليه صاحب الخبرة والعلم. كما أن فيه وجوب التواضع وقبول المعرفة من الغير، بمثل قبول سليمان عليه السلام العلم من الهدهد عن شأن قوم سبأ وملكتهم بلقيس، فاستفاد منه استفادة كبيرة، كما سيأتي بيانه.

ثم تدرج الهدهد إلى مرتكز الخبر وعينه، فشرحه وبينه ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ لقد وجدت امرأة تملك قوم سبأ، وهي بلقيس ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فقد حباها الله تعالى في ملكها من كل شيء يُمكنها من إدارة مملكتها، والمحافظة عليها. وورد هذا البيان بأسلوب المبالغة ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ بما يفيد الاستقصاء لمكوناتها واستيفائها لجميع مكونات الدولة، وما يحقق استقرارها، مما جعلهم لا يحتاجون غيرهم في شيء. وجعل المبالغة في تحصيل كل شيء للملكة، وليس لقومها جميعاً ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فَهي التي أُتِيتْ من كل شيء، فخص الإتيان لها كملكة، بأن الله تعالى أعطاها ما تحتاجه مما يَكْمُلُ به ملكها من ركائز تثبيت الْمُلك، فيستقيم وينتظم به شأنها وشأن ملكها. ولا يمنع أن الإيتاء لها من كل شيء يشمل قومها معها من إنعام الله تعالى عليهم. مع تخصيصها لبيان قوة ملكها، وقوة تأثيرها على قومها. فهي الأصل، والهدف من التخصيص في البيان. وهذا من دقائق الوصف، والتركيز على المقصود الأصلي، الذي له قوة التأثير على غيره.

ومن دقائق البيان في إيصال المعلومة من الهدهد لسليمان عليه السلام أن أورد ما عند ملكة سبأ بالفعل الذي لم يُذكر فاعله ﴿ وَأُوتِيَتْ ﴾ لشد الانتباه نحو ما تملكه، وإظهاره بمظهر القوة. ثم أكد قوة حكمها بما أوتيت من عظيم العرش المصنوع لها ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ فوصف عرشها بالفخامة في تكوينه. بما يدل على نفاسته وبراعة قومها في تشييده، وما أُلحِق به من الذهب واللؤلؤ والجواهر. وفي عموم التشييد والبناء، وغيره، مما يعبر عن تطور وازدهار مملكتها، بما يدل على تحضرهم ورُقيهم. والمقصود بالعرش هو الكرسي، أو السرير أو المكان الذي تجلس فيه الملكة لإدارة الحكم.

ثم انتقل الهدهد إلى بيان ديانتهم، وماهم عليه من الضلال، باستنكاره لما هم عليه من عبادة غير الله تعالى ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ فيُعَظِّم الهدهد قوة استنكاره من عبادتهم لغير الله تعالى ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فكأنه يقول: والأهم من ذلك أنهم يعبدون الشمس بالسجود لها من دون الله تعالى، أي: متجاوزين عبادة الله تعالى. بما يعني أنهم أهل كفر، تاركين الذي يجب أن يسجدوا له، وهو الله تبارك وتعالى، ويسجدون لمخلوق مثلهم. فجملة ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ تفيد أنهم تركوا ما يجب، مما هو حق لله تعالى، ومنحوا وأعطوا للمخلوق الأدنى ما هو لله رب العالمين. فهو سؤال استنكار، واستغراب من أن يكون ذلك من المخلوق. مما يفيد استشعار وإدراك المخلوقات الأخرى لخطأ من يعبد غير الله تعالى، وامتعاضها من ذلك. وأن مَن توجه بعبادته لغير الله عَزَّ وجل فقد حاد عن الحق، وعما يجب عليه. فكيف بمن زودهم الله تعالى بالعقل، وهو جنس الإنسان.

وقد تضمن البيان الإخبار بأن الملكة وقومها جميعاً يسجدون لغير الله تعالى ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا ﴾ أي: الملكة وقومها. ومن دقة بيان الهدهد في كلامه عنهم، أن وصفهم وصفاً دقيقاً جامعاً وجمعاً شمولياً لهم. فيقول: إن هذا السجود للشمس حاصل من أعلى رُتبَة فيهم، وهي ملكتهم بلقيس، وجميع قومها. وأفرد ملكتهم بالذكر ﴿ وَجَدتُّهَا ﴾ إذ لم يقل: وجدتهم يسجدون للشمس من دون الله، بل أفرد الملكة تخصيصاً بالذكر، وعطف قومها عليها. ليفيد تعظيم وتهويل خبر انحرافها وانحراف قومها في العبادة. فإن الأمر ليس خاصاً بها بل هي وجميع قومها. مما يفيد استعظام الهدهد سجودهم للشمس من دون الله تعالى، وقوة امتعاضه وإنكاره لذلك الانحراف الهالك لهم. ثم نسب قومها إليها ﴿ وَقَوْمَهَا ﴾ بما يفيد تبعيتهم لها بالطاعة، فأي تأثير عليها ستؤثر هي به على قومها. وفي كون قومها كذلك يعبدون الشمس، فإن ذلك يدل على أنها من فئة عباد الشمس، وأنها متأثرة بما عليه قومها من عبادة الشمس، وأنها نشأت على ذلك. كما سيتبين دلالته فيما بعد وهو ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ على ما سيأتي بيانه في مكانه بإذن الله تعالى ومشيئته.

ثم أخبر بأثر الشيطان في غواية الإنسان ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ وحَسَّن لهم الشيطان أعمالهم الكفرية، فَجَمَّل لهم عبادة الشمس، والسجود لها، وبفعل هذا التزيين والتحسين منه لهم منعهم من عبادة الله تعالى ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ فبهذا

التزيين منعهم وحال بينهم وبين عبادة الله تعالى ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ الذي هو الحق المستقيم الصحيح الذي لا اعوجاج فيه. فكانت النتيجة ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ وبهذا الذي حصل منهم ومن الشيطان فإنهم لا يهتدون إلى عبادة الله تعالى. أي: مستمرون على كفرهم، فأفاد الفعل المضارع ﴿ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ استمرارهم على ذلك، جيل بعد جيل.

وأفاد البيان من الهدهد أن الانحراف حصل منهم أولاً ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وأما عمل الشيطان فكان في عملية تزيين الانحراف، وتلميعه وتحسينه لهم ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ وبذلك التزيين انحرف بهم بأسلوب الصد ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ الذي يفيد التَّمَنُّع، فوصلوا إلى درجة الامتناع عن الهداية ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى عبادة الله تعالى. مما يبين أن الشيطان يستغل المعصية عند الإنسان، ويُجَمّلها بأحسن تجميل، حتى تصل وتنفذ إلى قلب المنحرف، فيستمر عليها، حتى يمتنع عن قبول الهداية والنصح. ويرابط على معصيته.

ثم يبين الهدهد ما ترتب على عبادتهم لِمَا هو من دون الله تعالى، وغواية الشيطان لهم، بأنهم أصبحوا ممتنعين عن السجود لله تعالى، بما زينه لهم الشيطان، حتى تشبثت قلوبهم بما هم عليه من الانحراف ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي: هلا سجدوا لله الذي يُخرج كل مخفي في السماوات والأرض، فلا يخفى عليه شيء فيهما. وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى أنها، تأتي بمعنى: ألا يقوم اسجدوا لله تعالى(١) قال الزجاج رحمه الله تعالى: والمعنى: وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا(٢) وتأتي بمعنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا(٣) وهذا التنوع المتظافر من الدلالات هو بحسب نوع القراءة، وكذلك لتنوع معطيات النص الكريم. ليتبين منها مجموع أوجه اعتراض الهدهد على قوم سبأ، فاستجمع في قوله ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ﴾ جميع أوجه الإنكار. مما يبين قوة البيان وجزالته، وكذلك يدل على قوة تأثر الهدهد من صرفهم السجود لغير الله تعالى. فهم ممتنعين عن السجود لله عَزَّ وجل نتيجة أن الشيطان زين لهم ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٧٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٦٤)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/٤١)

لِلَّهِ ﴾ فتشبثوا بعبادة الشمس، فامتنعوا بذلك عن السجود لله عَزَّ وجل، فلا يعرفون بذلك سبيل الحق الذي هو إخلاص السجود وكامل العبادة لله وحده لا شريك له، جَلَّ في علاه.

ثم يخبر الهدهد موجبات إخلاص العباد لله تعالى؛ من خلال بيانه لسببين عظيمين، يُجَلِّيانِ بطلان عبادة غير الله تعالى، ويحصران العبادة له وحده لا شريك له. فالسبب الأول هو: ﴿ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فمن عظيم قدرته عَزَّ في علاه أنه المتصرف في السماوات والأرض، فإنه ﴿ يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ ﴾ أي: يُظهر ما هو مخفي ومخبوء في السماوات والأرض، كالغيث في السماء، والنبات في الأرض. ويدخل في ذلك كنوزها ومعادنها، التي يُخرجها الله تعالى، بالسيول الجارفة، وبما يهدي إليه الإنسان بالحفر والتنقيب. فيقرر أن الذي بيده هذا الشأن والأمر هو الله تعالى الذي يجب أن تُصرَف العبادة له وحده لا شريك له. فَيُعِيد الهدهد غيره إلى الحقيقة بالدليل والحجة، بما هداه الله تعالى إليه من الحق. ليتعلم الإنسان العاقل الحقيقة من طائر، في الوقت الذي يخالف الكثير من الناس فطرتهم التي فطرهم الله تعالى عليها من الحق، وبما أعطاهم من العقل الذي يميزون به بين الحق والباطل.

وأما السبب الثاني فهو: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ ويعلم ما تُسرون به، وتكتمونه عن غيركم من الأسرار، وما تعلنونه من الأقوال، وتفعلونه من الأفعال. فكل شيء عنده علانية. فكيف تتركون من هذه بعض قدراته وآياته العظيمة، وتذهبون إلى من ليس له قدرة ولا علم، أو أن قدرته محدودة بالقدر الذي منحه الله تعالى فقط. فهذا فهم الطائر الهدهد، الذي يُعَلِّم الإنسان الصواب بفطرته. في حين يخالف الإنسان فطرته، وهو العاقل الْمُكَلَّف من ربه تبارك وتعالى بأن يعبده وحده لا شريك له.

ثم يبين الهدهد عظمة الله تعالى وانفراده بالربوبية لكل شيء ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فبدأ ببيان توحيد الله تعالى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فبدأ أولاً بتعيين لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ ثم عَرَّفَهُ بوحدانيته التي هي له دون غير ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فإن الله تبارك وتعالى واحد، ليس هناك إله إلا هو عَزَّ وجل، المنفرد بالألوهية، ثم بين انفراد الله تعالى بالربوبية من خلال أعظم مخلوق ﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فهو رب العرش العظيم، الذي وسع الكون كله، فهو ﴿ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الذي هو سقف المخلوقات جميعاً، فليس شيء أعظم منه إلا خالقه تبارك وتعالى. مما يبين أن عروش الملوك مهما بلغت نفاستها وعظمتها، كعرش بلقيس ملكة سبأ، فإنه ضئيل حقير، بل ولا شيء أمام عظمة عرش الرحمن تبارك وتعالى. فيبين جهل من اغتر ببعض المخلوقات، وانبهر بها فعبدها، وترك الذي خلق ما انبهر منه الإنسان كالشمس، بل

خلق الوجود كله. وفي دلالة جملة ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ ما يبين ويفيد أن الله تعالى هو رب هذا العرش الذي وسع الكون كله، وهو سقفه، وبالتالي هو رب جميع ما هو تحته، فأغنت وأعطت جملة ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ أن الله تعالى رب كل شيء، ومالكه والمتصرف فيه. وهذا القول السابق هو عن كلام الهدهد، قال ابن زيد رحمه الله تعالى: من قوله ﴿أَحَطتُ ﴾ إلى قوله ﴿ٱلۡعَظِيمِ ﴾ كلام الهدهد[1] مما يدل على قوة بيان موعظة الهدهد، ودقة معرفته بربه، واستنكاره لما عليه أهل العقول المنحرفة. كما بينت أقوال الهدهد فضل العلم بالله تعالى، وأنه نعمة عظيمة، وأنه أفضل العلوم وأرفعها وأزكاها. كما أفاد أن مجال تعلم الإنسان عام من كل مخلوق، حتى من تصرفات المخاليق عل اختلاف أنواعها. وكذلك فيه من الفوائد: أن على الإنسان أن يتعلم من تدبير الله تعالى لجميع أنواع المخلوقات، كيف دبرها، وسيرها بنظام وتنظيم دقيق، بل بلغ منتهاه في دقته، ومن ذلك ما أعطاه لطائر الهدهد من العلم، ودقة الاستنكار لمن خالف الحق، واتبع الباطل، فتفوق الهدهد على الكافرين في معرفة الله تعالى، واستحقاقه وحده للعبودية وكمال الطاعة والامتثال له عَزَّ وجل.

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٧ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ٢٨ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥﴾

بعد أن سمع نبي الله سليمان عليه السلام قول الهدهد، ولم يقاطعه حتى انتهى، انتقل إلى التَّثَبُّت والتَّأَكُّد مما سمع من الهدهد ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ قال سليمان عليه السلام للهدهد بعد أن فرغ من كلامه ﴿قَالَ سَنَنظُرُ ﴾ سنتأكد فيما أخبرتنا به ﴿أَصَدَقۡتَ ﴾ في كلامك الذي قلته ﴿أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ أو كنت من فئة المكذبين. وهذا يدل على قوة حكمته التي وهبها الله تعالى له.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٦٤)

فلم يتسرع بالتصديق، ولم يتسرع بالتكذيب للهدهد، بل نحا نحو النظر ﴿قَالَ سَنَنظُرُ﴾ والنظر يشمل التأمل والتحقق والتأكد، مما يدل على عدله عليه الصلاة والسلام مع غيره، وتحرزه من الظلم والتسرع من خلال التأني والتثبت. ليعطي درساً في ذلك، بأن على الإنسان أن يتريث عندما يواجه ما يشك فيه، ولا يقابله من أول وهلة بالتكذيب، بل يلزمه التثبت والتحقق. كما يفيد أهمية الحلم، وأهمية الاستماع للمتكلم، وعدم مقاطعته حتى ينتهي. وفي أسلوبه تعليم لأعوانه، من أنه لا يقبل الكذب، ولا يمر عليه بالتأييد والقبول مهما كان مغرياً. بل يجب على من يخبره أن يحذر، وأن يضبط قوله، فيما يخبر به ويقوله.

فكتب نبي الله سليمان عليه السلام كتاباً، وختمه بخاتمه، ودفعه إلى الهدهد ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ اذهب بكتابي هذا الذي سَلَّمتُه لك فأعطه قوم سبأ، ثم انصرف عنهم. وانظر ما الذي يكون منهم، ويتردد بينهم من الكلام. وقد ضبط مسافة وبُعد التولي بقوله ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ مما يدل على أن التولي عنهم لا يكون بعيداً، بل منضبطاً بما يحقق معرفة ما يكون منهم بعد استلام الكتاب. ومن دقائق البيان أيضاً أن ورد التوجيه للهدهد بأن يلقي الكتاب على أهل سبأ، ولم يعين ويخصص ملكتهم ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ ليبين أن المقصود قوم سبأ بكاملهم في هذا الخطاب، وليست الملكة هي المعنية بمضمون الخطاب فقط. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: فإن قلت: لم قال ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ على لفظ الجمع؟ قلت: لأنه قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فقال: فألقه إلى الذين هذا دينهم، اهتماماً منه بأمر الدين، واشتغاله به عن غيره. وبُني الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك[1] فعنايته بالدين كانت هي مرتكز الخطاب وغايته. مما يبين أهمية الدعوة إلى الله تعالى، وأهمية نشر الدين، وأهمية تصحيح عقائد الناس. كما أن مفهوم قوله عليه السلام ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أن يُلقيه على ملكتهم بلقيس، لأنه لا يمكن أن يتوزع الخطاب عليهم، وبالتالي فإن الهدهد لن يلق الكتاب إلا على ملكتهم سبأ.

ومن جميل الأسلوب، وجميل التوجيه أنه لم يقل للهدهد ثم عُد إلينا، بل قال ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ ليفيد التنحي عنهم قليلاً بما يجعلك تعرف ما يدور بينهم، وتعرف ما يتداولونه من كلام وتشاور حول مضمون الكتاب. بدليل قوله ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ فاعرف ماذا يقولون. ولكي ينظر ماذا يكون بينهم من أثر

(١) الزمخشري، الكشاف (٣/٣٦٠)

مضمون ومحتوى الكتاب، فلا بد أن يكون قريباً منهم. فجمع التوجيه كمال المراد بأقل الألفاظ، وهذا من دقائق البيان في كتاب الله العظيم.

ثم انتقل سياق البيان مباشرة إلى خبر قولها، ومردود فعلها دون تفاصيل لِمَا قبله، حيث طوى السياق الكريم خروج الهدهد، وطريقة إعطاء أهل سبأ الكتاب، واستلام الملكة له، وقِراءته، حتى لا ينشغل الذهن بما ليس فيه فائدة للمُخَاطّب. وهذ من خصوصيات عَرْض القصص في القرآن الكريم، لربط الذهن بالمهم، وشد انتباهه بما تحصل به الفائدة. وعدم اشغاله بالتفاصيل التي لا أهمية لها في بناء وتوجيه ووعظ الْمُخَاطَب. فانتقل البيان مباشرة لموضوع استلام ملكة سبأ للكتاب، وكلامها لقومها عن مضمونه ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴾ فحين اطلعت على الكتاب ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ ﴾ فشدت انتباههم بياء النداء، وبنعتهم بالملأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ ﴾ بما يفيد أرعوني أسماعكم لما سأقوله لكم أيها القوم. وفي نعتهم بالملأ ما يفيد تبجيلهم، بأنهم القوم الذي تستند إليهم في الرأي.

ثم خاطبت حاشيتها من أهل مجلسها وأشراف قومها بمضمون الخبر ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴾ إني استلمت كتاباً كريماً. وعَبَّرت عن هيئة وصورة الاستلام بلفظ الإلقاء ﴿أُلۡقِيَ إِلَيَّ﴾ أي: أنه سُلِّم إليها عن طريق إسقاطه أمامها، بما تمكن من أخذه واستلامه. وقد سَمَّت ووصفت ملكة سبأ هذا الكتاب بأنه ﴿كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴾ متصف بالكرامة والمنزلة والحفاوة والفضل. وقد وصفته بذلك الوصف الكريم لمضمونه ومحتواه الذي يُنْبِئ بِحُسن ما فيه. فقد تضمن كلاماً عظيما، وهو البسملة على ما سيأتي بيانه. وقال أهل العلم والفضل عن علة وسبب وصفه بأنه كريم أقوالاً متعددة، تتظافر فيما بينها ولا تتضاد ولا تتعارض، بما يفيد أنه شمل جميع الأقوال التي ذُكِرت، فمن أي وجه أبصرته ظهرت رفعته ومنزلته. فقد قيل: لأنه كان مختوماً، وقيل أنها ظنته أنه من عند الله تعالى. وقيل: حسن ما فيه. وقيل: لكلام صاحبه، فإنه كان ملكاً. وقيل: لأنه كان مهيباً. وقيل: لتسخير الهدهد لحمله. وقيل: لأنها رأت في صدر الخطاب: بسم الله الرحمن الرحيم[١] وجميع تلك الأقوال تتضافر فيما بينها على دلالة تكريمها للكتاب. فمن أي وجه أبصرته ظهرت رفعته ومنزلته.

ثم أخبرتهم أولاً بمصدر الكتاب: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ ﴾ وهنا لم تذكره بشيء. بل تصدرت التعريف بنون التوكيد ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ التي لحقت باسم الإشارة العائد على الكتاب. بما يفيد تأكدها وتأكيدها بأنه من سليمان.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٦٥)

وفي عدم تعريفها بمن هو سليمان، ما يدل على أن ذكره وأخباره قد وصلت إليهم، فَعُرِف عندهم بمجرد اسمه فقط: سليمان. ثم تَلَى ذلك أن قرأت عليهم ما هو مكتوب في الكتاب، ومبتدئة في بيان موضوعه ومضمونه أيضاً بنون التأكيد ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ المتصلة باسم الإشارة العائد على مضمون الكتاب.

وقد احتوى وتَكَوَّنَ مضمون الكتاب من أمرين عظيمين: الأول: وهو الافتتاح ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ والجملة الثانية: المضمون والمطلوب، وهو لُبّ الكتاب ومقصده وهدفه ﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ وهذا غاية البلاغة البيانية، لما فيه من الإيجاز العجيب، والمضمون الدقيق، الذي لا يمكن أن يكون إلا من نبي مُسدد من ربه تبارك وتعالى. فجملة ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ تحوي على البدء باسم الله ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ أي المألوه والمعبود بحق دون سواه. فينفي عبادة كل ما عداه. وبالتالي يبين لهم نفي عبادة الشمس وبطلانها، لأنها من دون الله تعالى، فهي خلق من خلقه. وهو اسم تفرد به الباري عَزَّ وجل. ثم تلاه اسم الله ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ المتصف بالرحمة الواسعة. وهي صيغة دالة على سعة رحمته عَزَّ وجل، وشاملة لكل أنواع الرحمة، وأن رحمته عَزَّ وجل لكل شيء. ثم تلاه اسم الله ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ الموصل رحمته إلى خلقه أجمعين. فالرحمن باعتبار الوصف. والرحيم باعتبار الفعل، بإيصال رحمته إلى خلقه. فاستدلت بهذا المضمون الكريم على أنه كتاب كريم، فوصفته فوراً لقومها بأنه كتاب كريم.

فعرفت بهذا المحتوى العظيم، الذي بُدِء بالبسملة أنه كتاب كريم. لِمَا في البسملة من المحتوى والمعاني والمقاصد العظيمة. فعرفت أنه من ملك مُتَّصِفٌ بالكرامة والخير، ولذلك سَمَّتهُ: كتاب كريم. مما يدل على رزانة عقلها وقوة ذكائها وفطنتها وحكمتها، وسرعة فهمها، التي اتضحت في جميع ما هو قادم من تصرفاتها.

وأما جملة ﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ فهي متضمنة لوجوب الطاعة والامتثال. ومبتدئاً كلامه عليه الصلاة والسلام لهم بحرف الحث والتحضيض ﴿ أَلَّا ﴾ الذي يعني ويفيد لزوم الامتثال لما بعده من أمر. ﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ ﴾ فلا تتكبروا ولا تترفعوا ولا تتعاظموا عليَّ، فتمتنعون بذلك التعاظم عن طاعتي ﴿ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ فأتوني مؤمنين طائعين، بما يفيد الاستسلام والانقياد والامتثال، وذلك بالإتيان إليَّ وأنتم مسلمون. فقد تضمن النص الكريم جماع البلاغة، ومظهر القوة والسلطان، والدلالة على الخير والترغيب بأبلغ الكلام وأوجزه. بما يفيد: التحذير لهم من عدم الطاعة والامتثال لما أمرهم به. وتحذيرهم مما يكمن في النفوس

من التعالي ﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ ﴾ بما يفيد النهي عن مطاوعة النفس في الاستعلاء، وبما يفيد الإنذار لهم بأنه لا طاقة لهم عما يلحق بهم إن حَكَّمُوا الاستعلاء عل الامتثال والطاعة. وكل ذلك هو نهي عن موانع المطلوب منهم، وهو ﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ ﴾ ثم ألحق بالنهي الأمر لهم بالمطلوب ﴿ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ بأن تأتوا وأنتم مسلمون، مستسلمون، منقادون. وفي طلب إتيانهم له دليل على أنه لا رغبة له في الاستحواذ على مملكتهم، بل يريد منهم أن يأتمروا بما سيأمرهم به من أمر الدين والطاعة. وليبين لهم أنه صاحب القوة والسلطان.

ويظهر أن بلقيس ملكة سبأ قد استوعبت جيداً دلائل ومقاصد كتاب سليمان عليه السلام. ولذلك أتبعت ملكة سبأ كلامها للملأ حولها في شأن ما أسمعتهم بما جاء في كتاب سليمان عليه السلام بتحذيرها من إتيان سليمان لهم. لكنها لم تباشرهم بذلك، بل تدرجت مع الملأ حولها، بأن بدأت أولاً: بأخذ انطباعهم ورأيهم، ولم تبادرهم برأيها حيال الخطاب ومضمونه ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴾ فتكلمت معهم بياء النداء ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ ﴾ بما يفيد: أرعوني سمعكم واهتمامكم ومشورتكم لهذا الأمر الذي ليس أمراً هيناً على نفوسهم بأن يأتوا إليه مسلمين مذعنين، وخاطبتهم بلفظة ﴿ ٱلۡمَلَؤُاْ ﴾ بما يدل على أنكم أعواني، ومستشاري في شؤون الدولة.

ثم بعد هذا النداء طلبت منهم ﴿ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي ﴾ بينوا وأشيروا لي بالرأي المناسب في هذا الخطب الجلل. وورد طلبها بكلمة الفتوى، ولم تكن بغيرها، كلفظة أشيروا، أو أخبروني. بما يدل على أن ليس لديها حل ورأي، فالمستفتي يطلب الحكم السديد الذي لا يخالفه غيره، ولا تجوز فيه المخالفة. وبما يفيد انقطاعها إليهم، ووضع حاجتها بين يديهم، لحثهم على استخراج أكمل ما يقدرون عليه من الرأي. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: وقصدت بالانقطاع إليهم والرجوع إلى استشاراتهم، واستطلاع آرائهم: استعطافهم، وتطييب نفوسهم؛ ليمالئوها، ويقوموا معها[1] مما يدل على أن الأمر بالنسبة لها قد تعاظم في نفسها لمفاجأتها به. كما أنها لا تريد أن تنفرد برأيها وتبادرهم به، فتقول قولاً لا يرضونه. فمن ذكائها أنها تتدرج معهم لتصل إلى ما أدركته من الرأي السديد الذي سيظهر منها فيما بعد. فإن بدر منهم الرأي الحسن فهو الأحسن، وأن لم يصلوا إليه تخبرهم به.

ثم أكدت قوة مطلبها وإلحاحها بما اعتادوا منها ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴾ لم يكن من منهجي وطريقتي أن أفصل وأبت في أمر من الأمور ﴿ حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴾ أي: حتى تحضرون وتشاركون في

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٣٦١/٣)

ذلك الأمر برأيكم ومشورتكم. مما يدل على حكمتها في إدارة الدولة، بأن تستشير الأعيان الذين يمثلون غيرهم من الناس. وتستمع منهم قوتهم الفكرية.

وأمام هذا الموقف أشاروا عليها بما يرجونه من استخدام القوة، وأظهروا رأيهم بأسلوب حكيم، يتناسب مع موقعهم ومكانتهم منها، إذ أرجعوا الخيار لها في اتخاذه ﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأۡسٍ شَدِيدٍ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾ فنحن أصحاب قوة ﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ ﴾ ولم يعينوا ويُظهروا نوع القوة، لتعظيمها، وجعلها شاملة لكل ما تحتاجه. وسواء قوة البأس، أو كثرة العدد، أو قوة الأبدان والتدريب، أو الشجاعة في الحرب. وعززوا ذلك بقولهم ﴿ وَأُوْلُواْ بَأۡسٍ شَدِيدٍ ﴾ فأفردوا البأس الشديد من بين بقية مفردات القوة، لإظهار قمة الشجاعة التي تحتاجها القوة، وهو البأس الشديد، فإن أي قوة من الكثرة والعتاد إذا لم يصاحبها شجاعة البأس فلا قيمة لها. والبأس هو: رباطة الجأش، والجرأة والشجاعة، التي تمثلها القوة النفسية عند المواجهة.

ثم نقلوا اتخاذ الرأي والقرار لها، بما تراه مناسباً ﴿ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾ بما يفيد إن أردتِ ما أشرنا به إليك من القتال، أو استحسنت غيره. وأفادت جملة ﴿ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ ﴾ نقل وإعادة الأمر والشأن منهم إليها، بعد أن أظهروا لها مشورتهم حسب طلبها، وهذا من أدب التعامل مع الحاكم، ومع الرئيس والمدير، والمسؤول الكبير. ثم أكدوا ذلك بأن قالوا ﴿ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾ فطلبوا منها أن تتأمل الأمر الذي تراه مناسباً، فتأمر به، بما يفيد نحن تحت طوعك وأمرك فيما تتخذين من قرار في هذا الشأن.

ومن دقائق تعاملهم معها أن قالوا ﴿ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾ فاستخدموا لفظة الأمر ﴿ مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾ ولم يقولوا: فانظري ماذا ترين. لأن في اختيار لفظة الأمر دلالة على تعظيمهم لها. وهو ما يجب أن يكون من الرَّعِية مع الراعي، وهذا يدل على قوة ترابطهم مع ملكتهم. وقوة سياستها التي جعلت أعوانها على رأي واحد، وعلى الشجاعة والصلابة. ولكن ليس كل أمر ينفع فيه ما أشاروا به عليها، وليس كل أمر يقوم على القوة والشجاعة، بل هناك أمور تقوم على الحنكة والحكمة.

وهنا نقلتهم من اتخاذ القرار إلى الحيثيات التي يجب أن يتأملوها قبل اتخاذ القرار، ويحسبوا لها الحسابات الحكيمة، فيستعدوا لها بالقرار الحكيم. وفي هذا تدرج منها بهم إلى ما سيكون منها من الرأي، إن لم يصلوا إليه ﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ فنقلت أفكارهم وعقولهم إلى حال قوة الملوك عموماً، بالرغم من أنها ملكة مثلهم، ينطبق عليها في الحكم العام ما ينطبق عليهم من الوصف الذي وصفتهم به، مما يبين أنها سمعت بسليمان عليه السلام وقوته،

وعرفت عنه الكثير. وبما يفيد أنها تعرف أنه لا طاقة لهم بقوة سليمان وجنوده. وربما أن قومها ومستشاريها لا يعرفون عنه ما تعرفه هي، أو أنهم يعرفون عنه بمثل معرفتها، وهو الأرجح، لشهرة شأن سليمان وتناقل أخباره بين العالم. ولكن ربما رأوا أنها قد ترمي باستشارتهم إلى اتخاذ القوة. ويعزز ترجيح معرفة مستشاريها بشأن قوة سليمان هو قولها لهم عند مطلع عرض كتابه ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ ﴾ ولم تزد على ذلك من التعريف، بما يدل على أنه معروف لديهم. فَيُسْتَنْتَج من ذلك أنهم أرادوا بذلك الرأي أن يتقربوا لها بالمحاباة، ظناً منهم أنها تحب ذلك وتهواه. مما يبين أهمية الفطنة من الحاكم، أو القائد لرأي أعوانه، مهما كانت نوع ومستوى قيادته، وفي أي مجال وشأن. فربما يتزلفون ويتقربون له بما يحب وإن كان فيه مفسدة متوقعه.

فقالت لهم بما يجعلهم يعيدون التفكير ﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا ﴾ فقررت لهم بما يفيد التحذير والتهويل. فإن الملوك إذا دخلوا بلداً عِنوة بالقتال والغلبة ﴿ أَفۡسَدُوهَا ﴾ أي: أحلوا بها الخراب، من الهدم والقتل والاستحواذ على ما فيها من الخيرات. وكذلك ﴿ وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ وأذلوا أشراف وأعزاء القوم، بإهانتهم، ليستقيم لهم الشأن والأمر، فيصبح لا قيمة لأشرافها وأعزائها، ولا منزلة لهم البتة. بل يتحولون إلى أذلاء مهانين.

ثم صورت لهم ما يمكن أن يكون من سليمان فيما لو قامت الحرب معه، فقالت لهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ وكذلك سيفعل سليمان وجنوده فيما لو دخلوا مملكتنا. مما يفيد: أنه لو قابلنا سليمان بجيشنا، فلربما بقوته يدمر مملكتنا، ويجعلنا أذلاء بعد عِزِّنَا. فلماذا لا نفكر بغير طريقة الحرب والمنازلة. بأن نأتي إليه بالتفاوض والمحاورة، بدلاً من أن يأتي إلينا عنوة وغلبة. مما يؤكد معرفتها جيداً لقوة سليمان من أخباره. وهذا البيان والتحليل منها يدل على حكمتها وفطنتها ورجاحة عقلها، حتى في طريقة وأسلوب المعالجة، حيث تدرجت من حال إلى حال، فبدأت بإظهار الحاجة إلى رأي الملأ الذين هم حولها، فلما رأت رأيهم مخالف لحقيقة السياسة والحكمة، أظهرت لهم ما يمكن أن يكون فيما لو كان، وبأسلوب غاية في الحكمة. مما يفيد أن الرأي السديد قد يكون من الواحد الحكيم، أو الأكثر حكمة، فإن رأيه قد يكون أفضل من الكثرة. وأن الأهمية معقودة على الحكمة وحيثياتها، وسواء كانت من فرد، أو جماعة، وسواء كانت من امرأة أو رجل، وسواء كانت من صغير أو كبير. فلا يقاس الأمر بالكثرة، بل بحقائقه واحتمالاته وآثاره.

ثم تدرجت معهم إلى استلطاف سليمان عليه السلام بالهدية، لمعرفة واكتشاف مراده الحقيقي. وهل هو نبي أو أنه فقط ملك كغيره من ملوك الأرض. وهنا قررت إرسال الهدية لسليمان عليه السلام. وهذا يدل ويفيد أنها استشفت من الملأ أنهم قد تنازلوا عن رأيهم بمبادرته بالقوة والمواجهة بالحرب، فعدلت إلى الهدية،

لترى نتيجتها ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ فإني عزمت وقررت بأن أرسل إليه هدية ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ فسياق قولها يدل على أنها اتخذت ورجحت قرار إرسال الهدية ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ ونعتت سليمان بمفهوم الجمع ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم﴾ ليفيد: هو ومن معه من أعوانه، أو ليفيد التعظيم.

ثم ذكرت علة إرسال الهدية ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ فأتأمَّل ما يكون من سليمان حيال الهدية، من خلال ما يعود به المرسلون من خبر. وقد بينت وأفادت صيغة الجمع للمرسلين ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أن الْمُرسَلُون الذين سوف ترسلهم هم عدد كثير، وليس بالقليل. ليتبين من ذلك أيضاً حجم الهدية، بأنها هدية كثيرة متنوعة. وكذلك لإظهار حفاوتها بهديتها من خلال تكثير عدد الوفد الذَّاهِب بها إلى سليمان عليه الصلاة والسلام. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ذُكر أنها قالت: إني مرسلة إلى سليمان لتختبره بذلك، وتعرف به، أملك هو، أم نبي؟ وقالت: إن يكن نبياً لم يقبل الهدية، ولم يُرضه منا إلا أن نتبعه على دينه. وإن يكن ملكاً يقبل الهدية، وانصَرَف[1] مما يدل على فطنتها وحكمتها، وقوة سياستها وتدبيرها للأمور.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَـٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَـٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

ثم يخبر الله تعالى بما كان من سليمان عليه السلام عندما وصل رسول ملكة سبأ إليه بالهدية ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَـٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَـٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ فلما وصل

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/٥٢)

رسول ملكة سبأ إلى سليمان عليه السلام بالهدية، باشرهم سليمان بإيضاح ما أنعم الله تعالى به عليه من المال والخير العظيم، وزُهْدَهُ واعتراضه على الهدية المخالفة لمقصود الرسالة وجوهرها. وهنا أُفرِد المجيء ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَـٰنَ ﴾ بما يوحي أنه واحد، وهذا الإفراد باعتبار الوفد أنه وفد واحد، وليس المقصود به العدد. كما تم إضمار القادم إلى سليمان عليه السلام ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَـٰنَ ﴾ لأنه معروف أنهم الْمُرْسَلُون بالهدية، فلم يتم اشغال ذهن المتلقي أو الْمُخَاطَب بهم، ولا بالهدية، فالمقصود من النص الكريم إظهار ما كان من سليمان عليه السلام.

فباشر سليمان الهدية ببيان ما أنعم الله تعالى به عليه من الله تبارك وتعالى، وزُهْدَهُ واعتراضه على الهدية المخالفة لمقصود الكتاب وجوهر الرسالة ومضمونها ﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَـٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَـٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴾ فبدأهم بالاستنكار الذي أورده في صيغة سؤال، ليبين لهم اعتراضه على ما جاء من المال في هيئة هدية منهم ﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ ﴾ فهل طلبت منكم مالاً لتمدوني به؟ إنما طلبت أن تأتوا إليَّ مسلمين لا أن تمدونني بالمال. فهذا خلاف ما أمرتكم به. وفي وصف الهدية بالمال ما يبين محتوى الهدية بأنها من الجواهر والذهب والفضة ونحو ذلك. ويبين هذا الاستفهام من سليمان عليه السلام بالاعتراض أن مراده ومقصده لم يتغير، ولن يتغير، فهو مُتَعَيِّن ومحصور في الاستسلام بالإسلام، واعتناق دين الله تعالى، وتحقيق التوحيد، ونبذ الشرك والكفر.

ثم انتقل إلى بيان زهده في المال، ومعللاً لهم أسباب الزهد فيه، وذلك من خلال بيان عظيم ما رزقه الله تعالى به ﴿ فَمَآ ءَاتَـٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَـٰكُم ﴾ فالذي أعطاني الله تعالى أعظم مما آتاكم من المال والملك، بما يفيد غناه عنهم، وزهده في مالهم وهديتهم، وعطاياهم مهما كان ثميناً وكثيراً. فما آتاه الله تعالى لا يقدر بثمن، فأعلاها النبوة، والدين، ثم الْمُلك الذي لا ينبغي لأحد من بعده، وسخر له الجبال والطير، والإنس والجن والدواب والرياح. مما يبين أن ليس له الرغبة في امتلاك مملكتهم والاستحواذ على خيراتهم إن أتوا مسلمين.

ثم أوضح لهم الفرق بين حاله وحالهم تجاه الهدية، أي: أنه بين نظرته وتقييمه لها، ونظرتهم وتقييمهم لها ﴿ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴾ بل أنتم مسرورون فرحون بهذه الهدية، لقيمتها العالية في نفوسكم. بما يفيد: أما أنا فلست بها مسروراً مثلكم، ولست فرحاً بمحتواها ومكوناتها، لأن ما أعطاني الله تعالى هو خير من ذلك، فلا أجد فيها ما يغريني، مهما تعاظمت في نفوسكم. وقد ورد مطلع الكلام بحرف ﴿ بَلۡ ﴾ الذي يفيد الإضراب الانتقالي، لبيان الاختلاف بينه وبينهم تجاه شأن الهدية. ليؤكد لهم أن الأمر والشأن أعظم من ذلك، فهو توحيد الله تعالى وعبادته وفق ما شرع.

ثم بعد أن بين للمرسلين من ملكة سبأ موقفه من الهدية، وكثرة وعظيم ما عنده من الخير، خاطبهم بخطاب عَظَّمَ فيه ما طلب منهم، وهو الذي احتواه كتابه: بأن يأتوا إليه مسلمين. بما يبين أن ليس له مراد في مملكتهم ولا خيراتها، بل مراده توحيد الله تعالى. فقال لهم ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ فخاطب رئيس وفد المرسلين تعييناً وتحديداً، حيث أفرده بالخطاب ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ عُد إلى قومك، وأفهمهم بقرارنا لهم، والمتضمن لأمرين: الأول: هو ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ لنأتيهم بجيش من الجنود، لا قدرة لهم في مواجهته، بما يبين لهم عظمة جيشه، من حيث الكثرة والقوة. وبما يدل على العزم والحزم.

والأمر أو القرار الثاني: ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ فلنخرجنهم عنوة من بلادهم سبأ، وهم في ذلة وصغار من الإهانة التي تلحق بهم. بما يفيد: فإن أتوني مسلمين، فلن يكون لهم شيء من ذلك التهديد والوعيد، وبما يبين أن الهدف ليس هو التوسع والاحتلال، بل المقصد هو تحقيق طاعة الله تعالى، والامتثال له بالإسلام والاستلام ولانقياد له عَزَّ وجل بالتوحيد وكمال الطاعة، وترك الكفر ونبذه. وهذا يدل على نُبل الهدف، وقوة القدرة، مع قوة الحزم والعزم الذي يدل على كمال نعمة الملك الذي أنعم الله تعالى به على سليمان عليه الصلاة والسلام. وقوة رغبته وجهاده من أجل طاعة الله تعالى، وتقديم السلم على الحرب.

ثم يطوي السياق الزمن الْممتد ما بين عودة المرسلين إلى ملكتهم سبأ، وما دار بينهم من تشاور وحديث، إلى ما اتخذته من قرار، وهو الذَّهاب إلى سليمان عليه الصلاة والسلام، مع حشد كبير من قومها، لمعرفة ما عنده، وماذا يريد من الدين. مما يفيد أن هذا التجاوز في السياق لتلك الأخبار هو بسبب عدم فائدته للمُخَاطَب، فتجاوز السياق عنه. لينتقل البيان من الله تعالى إلى الإخبار بما طلب سليمان عليه السلام من جنوده ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان، قال: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان، قالت: قد والله عَرَفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وما نصنع بمكابرته شيئاً. وبعثت إليه: إني قادمة عليك بملوك قومي، لأنظر ما أمرك؟ وما تدعونا إليه من دينك؟[١] فلما أتت الرسل إلى نبي الله سليمان عليه السلام، للإخبار بقدومها إليه مع قومها ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ فأراد عليه السلام أن يبين لها مقدار عظمة قدرة الله تعالى، بما أعطاه من قوة في الملك والسلطان، لتكون آية إعجاز أمامها بأنه نبي، وأن الله تعالى حباه بما لم يُعطه أحداً من غيره، مما يدفعها ويجعلها تُقر بنبوته، وعظمة ملكه وسلطانه، فتستجيب للدين

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٣٧٦)

طواعية ورغبة وامتثالاً، فتدخل هي وقومها في دين الله تعالى بأيسر ما يكون. وهذه من الحكمة والدهاء التي حباه اللهُ تعالى نبيه سليمان عليه الصلاة والسلام.

فخاطب الملأ من جنوده خطاباً عاماً يشمل الجميع ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ ﴾ نداء استحثاث، وتأهب لما سيأمرهم به، أو يطلبه منهم، أو يوضحه لهم. فبالرغم من معرفته بأنه لن يقدر عليه إلى جنس معين. إلا أنه عمم النداء. ليتبين حكمته في إدارة أعوانه وجنوده، بما يبين ويُظهر لهم أهميتهم مع اختلاف قدراتهم، وأن كل صاحب قدرة مخصوصة هو مهم في العمل المخصوص به، والمتوافق مع قدراته التي وهبها الله تعالى له. ثم حدد الطلب ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ من منكم لديه القدرة بأن يأتي بكامل عرشها كما هو من بلادها سبأ إلى بلاد بيت المقدس، قبل مجيئهم راغمين مُذعنين مستسلمين لما أمرتهم به.

وهنا يظهر أحد جنود سليمان عليه السلام من الجن ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ فقال واحد ﴿ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ والعفريت هو المارد القوي من الجن. ذكر القرطبي رحمه الله تعالى وغيره بأن العفريت هو: الداهية، والشديد إذا كان معه خبث، وهو القوي المارد. ومنه قولهم: تعفرت الرجل. إذا تخلق بخلق الأذية. وقيل اسمه: كودن[١] فهو المتصف بالقوة الفائقة، مع الدهاء والمكر. ووصف هذا العفريت عمله الذي سيقوم به بصفتين: الأولى: متعلقة بالسرعة ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ قبل أن تقوم من مقعدك هذا الذي تقضي فيه بين الناس. قبل أن تنتهي منه.

قال الطبري رحمه الله تعالى: وكان فيما ذُكر، قاعداً للقضاء بين الناس، أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك هذا الذي جلست فيه للحكم بين الناس[٢] فالمسافة من الشام إلى مملكة سبأ في اليمن هي مسيرة شهرين مشياً للإنسان. وهذا المارد العفريت يقطع كل هذه المسافة في ساعة أو ساعتين، أو نحو ذلك. مما يدل على سرعة الجن، وقدرتهم الفائقة التي منحها الله تعالى لهم. وأما الصفة الثانية: فهي متعلقة بسلامة سريرها الذي تجلس عليه ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ أي: قوي على حفظه، وحفظ هيكله، ومحتوياته من الذهب والفضة والجواهر، بحيث لا ينقص منه شيء. مما يبين ما أعطى الله تعالى بعض خلقه من القدرات، التي تبين

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣/١٣٥)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/٦٧)

أن الله تعالى قادر مقتدر على كل شيء، فَوَزَّع القدرات بين خلقه بحكمته العظيمة، فأعطى كل جنس من خلقه ما يناسبه.

وذكر القرطبي رحمه الله تعالى بعد أن قال العفريت: أنا أحضره لك قبل أن تقوم من مجلس القضاء. قال سليمان عليه السلام: أريد أسرع من ذلك[١] فعند ذلك قال آخر من الملأ، ممن عنده علم خاص أنه يستطيع أن يأتي بعرشها في أقل من ذلك الوقت، فقد جعله ذلك العلم الذي عنده أكثر من صاحب القدرة الأول ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أي: فقام قائم من ملأ سليمان عليه الصلاة والسلام وهو مُتَّصِف بعلم الكتاب ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ فهو عنده علم من الكتاب. وفي العلم الذي عنده أقوال، أرجحها ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وقتادة، والجمهور رحمة الله تعالى عليهم: أنه اسم الله الأعظم المنزل على سليمان[٢] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: قال أكثر المفسرين: على أن الذي عنده علم من الكتاب هو: آصف بن برخيا، وهو من بني إسرائيل. وكان صِدّيقاً، يحفظ اسم الله الأعظم، الذي إذا سُئل به أعطَى، وإذا دُعِي به أجاب. وكذلك قال القرطبي: وعلم الكتاب على هذا علمه بِكُتِبِ الله المنزلة. وقال أيضاً: والذي عليه الجمهور من الناس أنه رجل صالح، من بني إسرائيل، اسمه آصف بن برخيا، روي أنه صلى ركعتين، ثم قال لسليمان: يا نبي الله أمدد بصرك، فَمَدَّ بصره نحو اليمن، فإذا بالعرش. فما رد سليمان بصره إلا وهو عنده[٣] مما يدل على أن هذا الرجل الصالح العابد قد حَصَّلَ ونال هذا العلم من الكتاب الْمُنَزَّل من الله تعالى.

وأفاد حرف ﴿ مِّنَ ﴾ أن ما عنده من العلم هو بعض مما في الكتاب من العلم، وليس كله، مما يدل على عظمة كتاب الله تعالى. لأن ﴿ مِّنَ ﴾ تفيد التبعيض ﴿ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ بعضاً من علم الكتاب. ليفيد عظمة كُتُبِ الله تعالى، وعظمة ما فيها من العلم، حتى ولو كان بعضه، فإن ما فيها عظيم إلى أقصى ما يمكن. ليتبين عِزَّة كُتُبِ الله تعالى، وفضل من أخذ منها. وقد نسخها القرآن جميعاً، وأصبح هو المهيمن، فيكون على عظمته فقد اجتمع فيه عظيم ما سبقه من الكتب. فإنه اليوم أمر عزيز أن يحيط الإنسان بكل دقائق وخزائن العلم بالقرآن إحاطة كاملة، لكثرة وغزارة ما فيه من العلم، الذي يتعذر أن يُحيط به مخلوق واحد إحاطة كاملة، ولذلك كان الذي عند هذا العبد الصالح العابد هو بعضه ﴿ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ما يوضح كرم الله تعالى لأهل

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣/١٣٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٧٠)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣/١٣٦-١٣٧)

العلم، وأن أفضل العلوم وأقربها إلى الله تعالى هو علم ما أنزله. وبالتالي فإن خير علم منذ نزول القرآن على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن العظيم. وأن الله تعالى يعطي من الكرامات للإنس ما تذهل بها العقول، حتى ليصبح الإنسان به أقوى من الجن، ومن ذلك ما ورد من خصائص سورة البقرة، وآية الكرسي، في منعتها من الجن، وبركتها.

فقال هذا الذي عنده علم من الكتاب ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ أي: قبل أن يبلغ طرفك مداه وغايته، ثم تعيده إلى حيث كان. والطرف هو: إطباق الجفن على الجفن، وهو كذلك: تحريك الجفون في النظر. والطرف اسم جامع للبصر[1] فيكون المعنى والقصد هو: فلا ينتهي طرفك إلى مداه، فتعيده إليك إلا ويكون عرشها ماثلاً بين يديك. قال ابن جرير رحمه الله تعالى عن أولى الأقوال بالصواب في ذلك: قول من قال: قبل أن يرجع إليك طرفك من أقصى أثره[2] فالبصر إذا أبصر به الإنسان امتد إلى غايته ونهاية وتمام ما يصل إليه، ثم يعيده إلى حيث بدأ، أو ينقله إلى ما شاء من الْمُبَصَرات. وعند ذلك أذن له سليمان عليه السلام، فَدَعَا الرجل الذي عنده علم من الكتاب ربه سبحانه وتعالى. فما أن رَدَّ سليمان بصره إلا والعرش ثابت عنده.

ثم بينت الآية الكريمة حال نبي الله سليمان عليه السلام ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ فعندما رأى سليمان عليه السلام عرش بلقيس ثابت بين يديه ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ قال هذا العطاء من القدرة، ومن التمكين هو تفضل من الله تبارك وتعالى، فهو شيء ومفردة من فضائل الله عَزَّ وجل الكثيرة العظيمة. فأسدل نعمة انتقال عرشها بهذه السرعة أمامه إلى فضل الله عَزَّ وجل. وفي إسناد الفضل إلى الله تبارك وتعالى ما يفيد أنه تبرأ من حوله وحول كل مخلوق، وأسند الحول والقوة لله عَزَّ في علاه. ثم علل إسناد الفضل إلى ربه بأنه من باب الابتلاء ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ ليختبرني ويمحصني بهذا الفضل، هل أشكر ربي عَزَّ وجل على ما أنعم به عليَّ، أو أكفر نعمته بعدم شكرها وعدم إسنادها إليه سبحانه وتعالى. مما يُعَلِّم المؤمن أن واجبه حيال كل نعمة هو إسنادها وإرجاعها إلى لله تبارك وتعالى، وأن يشكر ربه جَلَّ شأنه. وألا ينسب النعمة لجهده واجتهاده، فإن الله تعالى هو الموفق، وهو المدبر للتحصيل من الخير والفضل. وأن الله تعالى يبتلي المؤمن على النعم، هل يكون من الشاكرين، أو الكافرين بها. فالكفر هنا هو عدم اسنادها إلى الله تعالى، فكفر النعمة هو إنكارها، كأن ينسبها لخبرته أو حذاقته أو علمه وذكائه. اللهم اجعلنا ممن يشكرك دائماً وأبداً، ولا يكفرك يا رب العالمين.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب (٢١٣/٩)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٣/١٨)

ثم ينتقل عليه السلام إلى بيان أثر شكر النعمة، بأنها عائدة على من شكر ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ فمن يشكر ما أنعم الله تعالى به عليه، فإن أثرها عائد عليه بالمزيد من الخير والثواب العظيم، فليست عائدة على غيره، وليس لله حاجة في شكره، ولا شكر أحد من خلقه، بل المستفيد هو من شكر ربه. ثم أوضح حال من كفر، وتصحيح مفهومه وفكره ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: أنكر مصدر النعمة أنها من عند الله عَزَّ وجل، فلم يشكر الله تعالى، فقد كفر بالنعمة، أي: جحدها من معطيها عَزَّ وجل، فإذ لم يحمد ربه تبارك وتعالى عليها، ولم ينسبها لمعطيها فقد كفر، وهو العبد الفقير الضعيف، المحتاج لشكرها حتى لا تنقطع عنه، وحتى تزداد وتتكاثر عليه.

ثم وصف سليمان رَبَّه تبارك وتعالى بما هو له من الغنى عن خلقه ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ فإن ربي غني عن الشكر، وغني عن العباد، والعباد فقراء إليه سبحانه وتعالى. كما أنه ﴿كَرِيمٌ﴾ فهو كريم في عطائه لمن شكر، وكذلك مع من لم يشكر، إذ لا يسارع له في العقوبة. فيعطي المسلم والكافر من عطائه وكرمه وجوده سبحانه وتعالى. ويما يفيد أن من شكر أكرمه الله الكريم سبحانه وتعالى بفضله وجزيل عطائه، ومن أضاع الشكر فقد فَوَّت على نفسه خيراً كثيرا. فيا أيها المؤمن كن شاكراً لربك، ولا تُفَوِّت على نفسك الخير والكرم من الله تعالى بهجرك وتركك شكر المنعم جَلَّ جلاله.

وفي المفارقات بين قدرة العفريت من الجن وبين مَن عنده علم من الكتاب ما يفيد أنه يحصل بالعلم والحكمة ما لا يحصل بالقوة والإمكانات، فالعفريت عنده قدرة وهبها الله تعالى لجنسه من الجن، والإنس تفوقوا بالعلم الذي مكنهم الله تعالى منه، وما ينتج عنها من الاختراع والاكتشاف، وأعلاها العلم بكتاب الله تعالى. فكم من جاهل مع وجود القدرات، لا ينتفع بما هو عنده وأمامه وبين يديه، وكم من صاحب علم ليست عنده قدرات، ولكنه ينتفع بما عند غيره من القدرات، فيكون أحسن وأفضل حالاً ممن عندهم القدرات دون العلم. فبالعلم يحصل التفوق، وبالقدرة دون مصاحبة العلم والحكمة ما يجعل غيره يتفوق عليه بتوفيق الله تعالى ثم بما عنده من العلم.

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان ما استعد به سليمان عليه السلام لملكة سبأ حال مجيئها، وبما يشد انتباهها ويبهرها، حتى يجعلها تطمئن إلى اتباعه بسهولة ويُسر، لِمَا ترى من الدلائل والحجج ﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ فأمر مَن كان عنده من الخدم والمعنين بأن يغيروا في عرشها بما يجعلها تراه وتتردد ولا تجزم به، فتنكر عليه بما لم يكن فيه ﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا ﴾ والتنكير هو الإحداث في صفات ومكونات الشيء، بما يجعل الرائي يتردد في حكمه عليه. كنزع بعض جواهره، وتغيير بعض ألوانه، وإضافة ما لم تكن تعهده فيه. ليتحقق بهذا التغيير الكشف عن فطنتها وحكمتها في الجواب، وفي تمعنها وتدقيقها، وأين يصل بها من الحكم عليه ﴿ نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ فنعرف من خلال ذلك كيف يكون جوابها، فهل تعرفه وتهتدي إليه، أو تُنْكِرُه بما حدث فيه من التنكير، فتكون من فئة البسطاء الذين لا يدركون الحقائق، وبالتالي لا تهتدي إلى أنه هو عرشها. فتكون من الفئة التي يغلب عليها الجهل. مما يدل على عمق حكمة سليمان عليه السلام، وتوفيق الله تعالى له بأن يفكر في هذا الأمر بأسلوب حكيم ودقيق، ليحصل به على مراده ومبتغاه من هذا الصنيع. وفيه أن معرفة الغير يحصل بمعرفة عمق منطقهم وحكمتهم، وسلامة تصرفهم.

ثم ينتقل البيان إلى وصولها إلى نبي الله سليمان، ومسيرها معه لبعض ما أراد أن يُطلعهَا عليه ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴾ فلما وصلت إلى مكان سليمان عَرَض عليها عرشها، لتتفاجأ به، ويختبر به حنكتها وعقلها وحكمتها ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِ ﴾ أي: أمثل هذا عرشك؟ ولم يُقَالُ لها: هل هذا عرشك؟ فينحصر الجواب في نعم أو لا. وكذلك حتى لا يفوت تحقيق الهدف من السؤال. كما ورد السؤال هنا بصيغة الاستفهام عن الحقيقة، لاختبار فطنتها. ولكن لم يظهر من السياق من هو الذي سأل، هل هو سليمان عليه السلام، أو أحد المرافقين لهما من أفراده. فالقائل هو من طرف سليمان عليه السلام، وسواء كان منه شخصياً، أو عن طريق من كلفه بذلك من المرافقين لهما. فإن مفاد عدم ذكره أو تسميته هو لنقل الْمُخَاطَب مباشرة للسؤال دون شد ذهنه للسائل لها، فمن يقرأ الآية الكريمة لا ينشغل ذهنه بشخصية القائل، بل ينشغل ذهنه بالسؤال فقط، الذي هو الأهم في الموضوع. وهذا أحد أوجه تغييب الفاعل. ليتبين براعة السياق.

ولذكائها وفطنتها أجابت بقولها ﴿ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ يكاد أن يكون هو. وهذا غاية في الفطنة والذكاء، إذ لم تجزم به، أو تنفيه. قال السدي رحمه الله تعالى: وجدت فيه ما تعرفه، فلم تُنكره. ووجدت فيه ما تُنكره فلم تُثبته. فلذلك قالت: كأنه هو. وقيل: أنها عرفته ولكن شَبَّهَت عليهم كما شَبَّهُوا عليها. قال المفسرون فقيل لها:

فإنه عرشك. فما أغنى عنك إغلاق الأبواب[١] لأنها عندما أرادت مغادرة مملكتها، حجزته وحجرت عليه بأن أوصدت عليه الأبواب. فبالرغم من المفاجأة في الموقف وفي المشاهدة لعرشها، وكذلك في السؤال أيضاً إلا أنها لم تتسرع، وتظهر دهشتها عند رؤيتها له، ولم تتسرع في الجزم بالإجابة، بل كانت مُوفَّقَه في الإجابة التي تدل على عمق ما وهبها الله تعالى من الحكمة والتريث. مما يفيد أهمية التريث والصبر، والحكمة في المشاهدة والجواب. وأن يسأل المؤمن ذلك من الله تعالى، فإنه هو المعطي، وهو الوهاب عَزَّ وجل.

ثم قال سليمان عليه السلام ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ أي: أُعطِينا العلم من الله سبحانه وتعالى بما سيكون من أمرها وحالها قبل أن تأتي إلينا. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، أي: قال سليمان: وأُوتينا العلم من قبل هذه المرأة بالله وبقدرته على ما يشاء، وكنا مسلمين لله من قبلها[٢] ومن غزارة السياق في معطياته أنه يمكن أن يكون هذا القول لملكة سبأ. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى والقول الثاني: أنه قول بلقيس. فإنها لما رأت عرشها قالت: قد عَرَفتُ هذه الآية، وأوتينا العلم بصحة نبوة سليمان بالآيات المتقدمة: تعني أمر الهدهد، والرُّسُل التي بُعِثَت من قبل هذه الآية، وكنا مسلمين منقادين لأمرك قبل أن نجيء[٣] خاصة عندما وَرَدَهَا كتابُ سليمان، فوصفته بأنه كتاب كريم، بما يدل على أن ذلك هو أول فهمها واستدلالها من منطوقه ومحتواه أنه من نبي، وليس غير ذلك، فوصفته بأنه كتاب كريم. وزادها ما بعده من أحداث تُؤَكد وتُوثِّق ما عرفته مسبقاً. مما يبين غزارة النص الكريم، إذ لا يمتنع احتمال الدلالتين، ليفيد أن تركيب الكلام بهذا السياق مقصود، وذلك لجمع هاتين الدلالتين غير المتعارضتين وبنص واحد، وبمفهومين متوافقين غير متضادين. فالقول الأول صحيح ومقصود، والقول الثاني صحيح ومقصود، ولا يعارض أحدهما الآخر. ليدل ذلك على الإعجاز البياني في القرآن العظيم، والذي يعضد بعضه بعضا.

ثم يخبر الله تعالى عن سبب وعلة صدود ملكة سبأ عن عبادة الله تعالى وتوحيده، وعبادتها للشمس من دون الله تعالى. فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ فالذي صَدَّ هذه المرأة، ملكة سبأ عن فطرتها بتوحيد الله تعالى، فكانت تعبد غيره من دونه سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ فتقليدها وتأثرها بقومها الكافرين جعلها تسلك مسلكهم. بما يفيد أنه لو لم يكن الأمر كذلك لما حصل منها عبادة الشمس، وهي بهذا القدر من الفهم والفطنة وقوة الإدراك. مما يدل على أثر النشأة وقوة تأثيرها حتى على العاقل، فقد تَقْلِبُهُ النشأة، وتتجاوز به إلى ترسيخ المفاهيم الخاطئة، فإن اعتياد ما كان

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧٢/٦)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٩/١٨)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧٢/٦)

عليه القوم يجعل من الشخص محصور المعرفة، فلا يعرف إلا ما اعتاد عليه. كما قال صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة. فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه)[١] ولكن هذا النوع سرعان ما يتشبث بالحق إذا ظهر له، كهذه المرأة، وكامرأة فرعون التي سألت الله تعالى أن يبني لها بيتاً في الجنة عندما علمت الحق، وبطلان الكفر وفساده كما في سورة التحريم ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

ثم يخبر الله تعالى عن شأن نبيه سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ، عند دخولها القصر الذي تفاجأت بتكوينه وتوزيعه العجيب، الذي لم تر مثله من قبل ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فَطُلِب منها دخول القصر ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ﴾ وورد الطلب منها بدخول الصرح من غير تعيين وتسمية القائل لها ﴿ قِيلَ لَهَا ﴾ وذلك لتفخيم القول لها بدخول الصرح، فقد يكون القائل هم من استقبلوها عند باب القصر، وهي بمعية سليمان، أو هي ومن معها من حاشية سليمان، وهو في استقبالها عند مدخله. كل ذلك لتفخيم شأن الاستقبال، والحفاوة والتكريم التي غايتها دفعها للإسلام وقومها من خلال رؤية عطاء الله تعالى لنبيه سليمان عليه الصلاة والسلام من العجائب الفريدة، والقدرات التي تفوق الذهن وتصوراته.

وليتبين استخدام النعمة في تحقيق العبودية لله تعالى، وليس للمفاخرة والتباهي. وأطلق على القصر ومكوناته اسم ﴿ ٱلصَّرْحَ ﴾ وهو القصر، وصحنه الذي في مقدمته. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: الصرح: القصر، وقيل صحن الدار[٢] قال القرطبي رحمه الله تعالى: وكان الصرح صحناً من زجاج، تحته ماء، وفيه الحيتان، وعَمِلَهُ ليريها مُلكاً أعظم من ملكها، قاله مجاهد. وقال قتادة: كان من قوارير، خلفه ماء ﴿ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ أي: ماء. وقيل الصرح القصر. وقيل الصرح: الصحن[٣] ولعل المقصود بالصرح هو القصر والمدخل

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (١٣٨٥)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٣٦٧/٣)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٨/١٣-١٣٩)

الواسع الذي يؤدي إلى القصر، وهو الذي تكون فيه الزينة وفنون التوزيع، وجمال التصميم، من الزرع وأحواض الماء ونحوه.

ولما دخلت الصرح هالها ما رأته ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ فحسبت أن الماء مكشوف، وسوف تمر من خلاله، ومعنى اللجة: حالة الماء في قوته وكثرته، وتردد أمواجه ﴿ وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ فرفعت أطراف ملابسها عن الماء، فكشفت عن ساقيها. مما يفيد جودة صناعة ما كان أمامها من الزجاج الذي كان سقفاً للماء، فلم تشك من قوة شفافيته أنه ماء، ولا غطاء عليه، فلا شيء يغطيه. مما يدل على قوة إتقان صناعة الزجاج الذي كان غطاء على الماء، حتى لكأنه عبارة عن قطعة واحدة، ليس فيه فواصل تُبين وتُظهر أنه مُؤلَّف من مجموعة قطع من الزجاج، فتدرك بتلك الفواصل أنه غطاء. وهنا أجابها سليمان بحقيقة هذه الصناعة ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ إن هذا الذي أمامك، وسوف تعبرين عليه ﴿ صَرْحٌ ﴾ مدخل وصحن القصر وفناؤه ﴿ مُّمَرَّدٌ ﴾ أي: مملس، ومُنَعَّم. ومادته مصنوعة ﴿ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ أي: زجاج. مما يدل على دقة صناعة الزجاج، ودقة نعومته، وشفافيته العالية الجودة، والخالية من كل ما يكشف أنه زجاج. وأنه مصبوب صبة واحدة، فلا فواصل موجودة فيه. فسبحان من علمهم تلك الصناعة. مما يبين أن الله تعالى هو المعطي، وهو المسخر، وأن الملك له وحده عَزَّ وجل، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء بحكمته تبارك وتعالى.

وهنا زاد يقينها يقيناً قاطعاً وجازماً بأن هذا لا يمكن أن يكون إلا آية من آيات الله تعالى لسليمان بأنه نبي من أنبياء الله تعالى، فأعلنت إسلامها واستسلامها لله رب العالمين. فبدأت أولاً: بعرض واقعها، واعترافها بأنها ظالمة لنفسها ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ فحكمت على نفسها بوقوعها في ظلم الكفر، بعبادة غير الله تعالى، بل يشمل الحكم جميع ما اعتقدت من الباطل، سواء كان في حق الله تعالى، أو في حق سليمان ومراده من استسلامهم وإسلامهم. ثم بعد تحقق الاعتراف بالخطأ والتأسف على ما كان من جهلها تُعلن إسلامها ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وآمنت مع سليمان لله رب العالمين. بما يوضح أنها أسلمت بما هو عليه سليمان من الدين ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ بإخلاص إسلامها لله رب العالمين ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بما يفيد إثباتها لإيمانها بأنه خالص لله تعالى رب العالمين، وليس لهدف آخر.

فإن الله هو رب كل شيء ومالكه، مما نعرفه ونعلمه، وما نجهله ولا نحيط به مما هو غائب عنا. وفي هذا ما يدل على أن العاقل الحكيم يقبل الحق، مهما كانت منزلته ومكانته. ويرضى بما يكون عليه بعد قبوله. كما يفيد مما تقدم من تعامل سليمان معها أهمية الحكمة، والتدرج مع الْمَدعُو للخير، وحُسن التعامل، وحُسن الوفادة

والاستقبال، وإنزال الناس منازلهم. فقد أكرمها بالاستقبال، وتدرج معها من شأن الهدهد الذي أوصل لها الكتاب، وبما عرف وعَلِمَ من حالها وقومها من عبادة غير الله عَزَّ وجل، ثم رؤيتها لعرشها الذي أبهرها الإتيان به، مع تلك السرعة الفائقة، ثم نقلها إلى الصرح الذي يكشف لها أن هذه القدرات ليست إلا من عند خالق هذا الكون سبحانه وتعالى، وأن من أُوتي هذا الشيء هو ممن اصطفاه الله تعالى على غيره بالنبوة. مما يبين أن هذا القرآن بقصصه وحقائق أخباره وتشريعه الذي يعظ الإنسان ويرشده إلى الحق المبين هو نور وهداية من الله تعالى للعباد.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟
ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ
يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ
مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾
فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

بعد أن عرض تبارك وتعالى قصة نبيه سليمان، وتواضع ملكة سبأ وتجاوبها بقبولها للحق وآياته، وإسلامها مع سليمان لله رب العالمين، يَعرِضُ عَزَّ وجل حالة مضادة، ممن يعاند الحق، ويتكبر عليه. فانتقل الوعظ بالقصص إلى قوم ثمود، وما كان منهم مع رسولهم صالح عليه الصلاة والسلام الذي ينتهي نسبه إلى نوح عليه السلام. وكانت منازلهم بحجر بين الشام والمدينة، في منطقة العلا. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ لقد بلغ كريم امتناننا على قوم ثمود أن أرسلنا لهم أخاهم صالحاً رسولاً إليهم ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ وبدأ البيان الكريم بحرف التحقق ولام القسم ﴿ وَلَقَدْ ﴾ الذي يفيد تأكيد تحقق ما بعده من البيان، وهو إرسال نبي الله صالح إلى قومه، قوم ثمود ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ فهو امتنان من الله تعالى عليهم، بما يُوجب استحقاق الشكر منهم لله عَزَّ وجل، وطاعته فيما جاءهم به رسولهم صالح عليه السلام. خاصة وأنه بمنزلة الأخ

لهم، حيث نعته الله تعالى بالأخ لهم ﴿ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ بما يفيد قوة وعمق معرفتهم له، ومكانته بينهم، وما اتصف به من صفات الأخوة. وهذا يعطي دلالة على كريم تعامل نبي الله صالح مع قومه حتى قَبْلَ بعثته بالرسالة فكان أخاً لهم في كريم التعامل.

ثم ذكر تبارك وتعالى مضمون الرسالة ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ اصرفوا العبادة لله تعالى بما أمر، وذلك بتوحيده ونبذ الشرك. بما يفيد أنه لم يكلفهم بما لا يطيقون، ولم يطلب منهم شيئاً من أموالهم على تصحيح دينهم، وإنقاذهم من عذاب الله تعالى. فانقسموا إلى فريقين ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ فريق آمن، وهم القليل منهم، وفريق جحد وكفروا. وقد أورد البيان الكريم حالهم بدقة بيانية عظيمة، فبدأ بما يفيد المفاجأة ﴿ فَإِذَا ﴾ بهم ينقسمون عليه. فريقان متنازعان ﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾ من الاختصام والمشادة التي أصبحت عداوة بين أهل الحق وأهل الباطل. وقد ورد اختصامهم في سورة الأعراف، والتي ملخصها قوله تعالى ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ فكانت خصومة الكافرين مع المؤمنين قائمة على إنكار نبوة صالح عليه الصلاة والسلام وما فيها من تشريع.

وهنا يسعى رسول الله صالح عليه الصلاة والسلام إلى تصحيح مفاهيم قومه الذين كفروا به، وامتنعوا عن الاستجابة له، بدعوتهم إلى التريث والطاعة والاستغفار ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فَلِمَاذا تبادرون بالكفر، وتتجاوزون الأحسن من الإيمان وفعل الحسنات، وتذهبون إلى الكفر وتبادرون إليه. فبادرهم نبي الله صالح عليه السلام بمناداتهم ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ﴾ والذي يفيد ترغيبهم، بتليين القول لهم، من خلال بيان انتسابه إليهم ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ فأنا منكم، وواحد من قوم ثمود، بما يفيد محبة الخير لهم. ثم بادرهم وبدأهم بسؤال استفهام حكيم، يفيد الاستنكار عليهم من تقديم السيء على الأحسن والأفضل، وتنبيههم على خطأ ما أخذوا به ﴿ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ لماذا تتعاملون مع دعوتي لكم بالخير إلى الاستعجال بالشر، فتأخذونها بوجه الإساءة، وتستعجلونها بالسيئة التي فيها العقوبة والبلاء، فتتقدمون بالسيئة ﴿ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ التي فيها الرحمة والخير والنجاة والعافية. فلماذا ترجحون

السيئة وتقدمونها على الحسنة ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ بما يفيد أن جميع ما دعوتكم إليه مكتمل الْحُسن فيه، فليس فيما دعوتكم إليه ما يُسيئكم، بل كل ما فيه من الهدى مرغوب ومطلوب ومحبوب للنفس. فلا تستعجلوا في الحكم، وتريثوا وفكروا. مما يبين خطورة الاستعجال في الحكم من غير تريث.

وفي استخدام دلالة السيئة: ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ ومقابلتها بدلالة: ﴿الْحَسَنَةِ﴾ لما فيهما من كافة الاحتواء والشمولية. فالسيئة تشمل نوع أخذهم لما جاءهم من الحق، وذلك بكفرهم وصدهم وعنادهم، وسوء تعاملهم مع رسولهم بالاستعجال في الكفر والإنكار والصدود، وما سيؤدي إليه كفرهم وعنادهم من حصول العقوبة والبلاء في الدنيا والآخرة. وأما الحسنة تشمل نوع الأخذ، وهو القبول، والإيمان والتصديق، والطاعة، وتشمل النتيجة من تحقيق الرحمة والنجاة من العذاب، وتحصيل الخير في الدنيا والآخرة. فهما كلمتان جامعتان لمضمون المقصود من الوعظ والنصح.

ثم أرشدهم وحضهم وحثهم إلى المخرج من الاستعجال في الحكم على أنفسهم بالكفر ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فهلا لكم أن تُقلعوا عن كفركم وتستغفرون الله تعالى وتتوبون إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ رجاء أن يتحقق لكم من الله تعالى الرحمة التي تُنقذُكم من عذابه سبحانه وتعالى، بالعفو عنكم، فيمدكم ويكرمكم بفضله وإحسانه في الدنيا والآخرة. وفي جملة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ اطماع لهم في نيل رحاب رحمة الله تعالى، وتشويق وتحفيز لهم إليها. كما أن في حرف ﴿لَوْلَا﴾ استنهاض وتحضيض، وحث على الاستغفار من الكفر، والدخول في دين الله تعالى، لعلهم يظفرون برحمة الله تعالى.

وبالرغم من كلام نبيهم ورسولهم إليهم بأنه في منتهى الأخلاق، والشفقة وحُسن المنطق، وجميل التعامل إلا أنهم ردوا عليه بأقبح الأوصاف والكلام ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ قال الذين كفروا من قوم ثمود لأخيهم صالح عليه الصلاة والسلام، مكذبين ومعارضين له ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ تشاءمنا بك، وبمن معك، ممن دخل في دينك. بما يفيد ما رأينا خيراً منذ أن جئتنا بهذا الدين، ودخل معك ممن دخل في دينك، فقد انحبس عنا بعض ما نطلبه من المطالب، فأنتم السبب في امتناع تحقق ذلك. وهذا من بهتانهم المبين على رسولهم ومن معه من المؤمنين، كما أن هذا هو محصلة ونتيجة فساد الكفر الذي ينعكس على تعلق قلوبهم بالتطير. ومبنى التطير هو: تعلق القلب بحركة الطير، أو نوع من الطير كالغراب مثلاً، وتعليلهم أن سبب ذلك هو رسولهم صالح ومن معه من المؤمنين. ويهدفون من ذلك المبالغة في إعلان كرههم لِمَا جاءهم به من الحق، وكذلك كرههم لرسولهم ولمن آمن معه.

فرد عليهم رسولهم صالح عليه الصلاة والسلام بجواب حكيم على تهمتهم ﴿قَالَ طَـٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ فإن ما يصيبكم هو من عند الله تعالى. بما يفيد نفي العلة والسبب الذي يُلصقونه به وبالمؤمنين. بإعادة الأمر إلى مدبر الكون سبحانه وتعالى، وتعليمهم بحقيقة الأمر، وحقيقة الدين. فليس الأمر كما تَدَّعونه بهتاناً وظلما، وفساداً.﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ بل إن الحقيقة هي: أنكم تُفتنون، وتُختبرون من ربكم سبحانه وتعالى بما أرسلني به إليكم، ليتحقق فيكم ما يظهر به الصالح المطيع، من الطالح العاصي، فَتُستدرَجُون فيما أنتم فيه من العناد بضلالكم الذي أنتم فيه.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى عن ثلة قليلة من المفسدين الذين يتبنون الفساد في الأرض ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ فقد كان في المدينة التي فيها صالح عليه الصلاة والسلام وقومه التي هي الحجر، كان فيها تسعة متزعمون لإفساد الأرض من خلال إفساد الناس، وصدهم عما يدعوهم إليه رسولهم صالح من الحق الواضح المبين، فكانوا يُلَبِّسُوا عليهم الحق بالباطل، بما يجعل الجهلة وأتباعهم يُصَدِّقونهم. وفي تخصيص وتعيين هذا العدد بالتسعة من قومه بتبنيهم الفساد في الأرض ما يبين شدة فساد التسعة من بين المفسدين الآخرين، لأن كل من كفر فقد فسد، وأفسد غيره، ولكن لهؤلاء التسعة شأن مُبين في الفساد. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين عقروا الناقة، وقالوا حين عقروها: نُبَيّت صالحاً وأهله فنقتلهم، ثم نقول لأولياء صالح: ما شهدنا مِن هذا شيئاً، وما لنا به من علم. فدمرهم الله تعالى أجمعين[١] مما يدل على أن هؤلاء التسعة يمثلون كبراء وزعماء قوم هود. كما يوضح ذلك أثر المفسد على غيره وإن قل عددهم، فيؤثرون في عقول وأفكار غيرهم، فيصدونهم عن الحق والخير، ويصورون لهم الحق باطلاً، بأساليبهم الماكرة.

ومن بلاغة البيان في وصف وتصوير قوة فساد هؤلاء التسعة أن أوقع البيان الكريم فسادهم على الأرض ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأن الأرض أرحب وأوسع في مكوناتها، وفيمن عليها، مما يبين أن شأنهم الفساد أينما حلوا وساروا في الأرض. كما أن وقوع الفساد على الناس يعم الأرض، بما يحدث فيها من العقوبات، وبما يكون منهم من منع الخير عن الغير. كما نفى البيان الكريم عنهم الإصلاح ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ فليس لديهم أي جهد، أو حتى نية في أي نوع ومجال من مجالات الإصلاح، فهم منقطعون ومتخصصون في الإفساد. بما يفيد تخصهم وتمحورهم في الفساد فقط. مع انقطاع وامتناع أن يحدث الصلاح منهم البتة لأي مخلوق.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٣/١٨)

ثم يُخبر الله تعالى بما كان من تخطيطهم للمكر والسوء، وما تحمله نواياهم ونياتهم من الشر لرسولهم صالح عليه الصلاة والسلام، إلى حد القتل خلسة ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ قال هؤلاء التسعة الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون فيما بينهم: ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ ﴾ أي: تحالفوا بالقسم أيماناً، بأن يحلف كل واحد منهم بالله على أداء وفعل ما اتفقوا عليه من قتل نبي الله صالح وأهله الذين يسكنون معه في الدار. بما يعطي دلالة الجزم الواثق على الأمر الذي عزموا على فعله بياتاً، وهو ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ ﴾ أي: مباغتته ليلاً ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ﴾ لنقتلنه وأهله ليلاً، وذلك قت المبيت. واستخدموا فيما تقاسموا عليه أسلوب المباغتة والغيلة. فكلمة ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ ﴾ تعني وتفيد: مباغتته ليلاً، بما يبين أن خطتهم مبنية على ألا يجعلوه يشعر إلا وهم فوق رأسه ليقتلوه، فلا يستطيع أن يدافع عن نفسه. وتفيد معنى المباغتة: المسارعة في التنفيذ من غير أن يشعر من قصدوه بفعلهم الشنيع، ونيتهم الردية.

وأخبر الله تعالى بما اتفقوا عليه من معالجتهم لجريمتهم، ورَد التهمة وصَدها عن أنفسهم ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ ﴾ ويقصدون بوليه: من يهتم بشأنه، ويطالب بدمه، ويأخذ بثأره من أقاربه ﴿ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ بنفي المشاهدة أصلاً، فضلاً عن فعل القتل ومباشرته. فنقول لأوليائه المطالبون بدمه من أقاربه: ما شاهدنا ولا حضرنا مقتل صالح وأهله، وليس عندنا علم بذلك. وإننا على ما نقول لصادقون. فقد تعاهد هؤلاء التسعة الذين عقروا الناقة، والذين اختصوا بالفساد وعدم الإصلاح، تعاهدوا بالأيمان المغلظة بأن يقتلوا رسول الله صالح عليه الصلاة والسلام وجميع أهله بمباغتتهم ليلاً، دون أن يعلم أحد بذلك. ثم ينكروا أصل علمهم بذلك من خلال نفي حضور ومشاهدة القتل، فتجاوزوا نكرانهم القتل إلى نفي المشاهدة والحضور أصلاً، بما ينفي حتى علمهم بذلك. وتضمن البيان التظاهر منهم بالحياد وعزوفهم وميلهم عن ذكره، وركزوا على مقتل أهله ولم يذكروه ﴿ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ بما يفيد عدم اهتمامهم به، وعَدَلُوا إلى أهله فقط، ليتبين شدة مكرهم، بإبعاد الشبهة بعيداً عنهم.

مما يؤكد ويبين أن الفاسد لا يتورع عن استباحة الفعل والجرم مهما بلغ من القسوة والتعدي. وأنهم يدبرون ويخططون للفعل الشنيع في معزل عن إدراكهم لرؤية الله تعالى لهم، أثناء تدبيرهم الأمر والتخطيط له، وأثناء فعلهم لو فعلوه. كما يدل على قسوة قلوب الفاسدين، وبغضهم للحق وأهله، وأنهم يمقتون ما يخالف شهواتهم وأهوائهم المنحرفة عن الحق والصواب.

ثم يخبر الله تعالى عن علمه بما كانوا يمكرون، فأفسد عليهم مكرهم، بأن مكر الله تعالى بهم، فحاق بهم ما كانوا به يمكرون ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ فدبروا أمراً من المكر والخديعة والغدر بما قصدوه برسولنا صالح عليه السلام وأهله، ونحن بعلمنا وقدرتنا مكرنا بهم وهم غافلون ﴿ وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ فكان مكر الله تعالى مكر قصاص منهم، ومكر دفاع عن رسوله صالح عليه السلام وأهله ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ وهم غير مدركين لتدبيرنا، وغير شاعرين بما دبرنا وأعددنا لهم بما أفسد عليهم مكرهم، ودمرهم سبحانه وتعالى ﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ فتأمل أيها الْمُخَاطَب واتعظ واعتبر كيف نهاية ونتيجة مكرهم الذي عاد عليهم بتدميرنا لهم ولقومهم الكافرين أجمعين. فتأملوا كيف هي نهاية ومآل الذين كذبوا رُسُلي، بما أصابهم من العذاب الذي حاق وأحاط بهم، فأهلكناهم بكفرهم. مما يفيد أنه سبحانه وتعالى لا يرضى لعباده الكفر، ولا يريده لهم، ولو أراده لهم لما بعث المرسلين، وما عذب الكافرين وأهلكهم. فاعتبروا أيها العباد بما جاءكم من الحق، ومن أخبار الأمم السابقة، فإن لكم فيها عبرة وموعظة.

وجملة ﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ ﴾ تفيد التأمل والتفكر بنظر البصيرة، والاعتبار، من قوة الله تعالى، وإحاطته بخلقه، وبما يدبرونه ويُسِرُّونه، ويتكتمون عليه، بأنه لا يخفى على علَّام الغيوب شيء في الأرض ولا في السماء، وتأمل إلى حالهم ﴿ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ ﴾ تأمل نتيجة ومآل مكرهم، الذي عاد عليهم بالخسارة الفادحة. فقد تم تدميرهم، وتدمير قومهم الكافرين أجمعين. وأنجينا نبينا ومن معه من المؤمنين من مكرهم، ومن عذابنا الذي حل بالمجرمين الكافرين.

وكلمة ﴿ فَٱنظُرۡ ﴾ تشد الانتباه نحو التعقل والتأمل، فانظر نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة الله تعالى في تدبير شأن مكرهم، ودفاعه عن نبيه صالح عليه السلام وعن المؤمنين، وإهلاك الكفرة أجمعين. وكلمة ﴿ فَٱنظُرۡ ﴾ فعل أمر، يفيد الأمر لك أيها الْمُخَاطَب بالتعرف على ما في هذا البيان من قصة المكذبين لرسولهم صالح عليه الصلاة والسلام، إذ كيف انصرف المعاندون عن آيات وحجج الله تعالى، ثم يدبرون المكائد للحق ولمن جاءهم به. فتأمل كيف انصرافهم عنه، بما يعطي العبرة والدروس المستفيضة. وأيضاً تعطي كلمة ﴿ فَٱنظُرۡ ﴾ في هذا السياق ما يفيد المبالغة من التعجب لأمرهم، وصدودهم، ومكرهم الخبيث. وكذلك التعجب من قوة مكر الله عَزَّ وجل، وقوة تصريفه لمكر الماكرين، إذ جعله وبالاً وهلاكاً عليهم. وكذلك تفيد كلمة ﴿ فَٱنظُرۡ ﴾ في سياقها: عجب التعظيم لقدرة الله تعالى في مكره لمن أرادوا المكر، وكذلك النظر

في بيان إقامة الحجة عليهم، وتفيد كذلك المبالغة في التعجب من حال كفرهم وتماديهم في الباطل إلى درجة التخطيط بالعزم والجزم على قتل نبي الله ورسوله صالح عليه الصلاة والسلام، وقتل أهله معه بغتة وبياتاً. وكذلك التعجب من استنكارهم وإعراضهم عن الحق؛ مع قوة ما جاءهم من الحجج والبراهين. فسبحان الله في قوة بلاغة بيانه؛ وجزالة كلامه، وسبحانه الله تعالى في سعة علمه وإحاطته بما يدبره العباد، وبما ينون عليه من الفعال، وسبحانه الله في قوة تدبيره وعقابه. وسبحان الله تعالى في رحمته وعظيم قدرته في أوليائه وأصفيائه، وسبحان الله في أدلته وحججه وآياته، فما أعظم كتاب ربنا سبحانه وتعالى، وما أعظم هدايته ورحمته بخلقه جَلَّ جلاله.

وكلمة ﴿كَيْفَ﴾ في قوله تعالى ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾ استفهام تأمل وتدبر عن الحال التي كانوا عليها، وكذلك عن ما حل بهم، وهي كذلك استفهام عن الحال التي سيكون عليها هؤلاء المجرمين في قبورهم وفي الآخرة، وهي محطة اتعاظ وتدبر، وترهيب من منهجهم، وترغيب في الاتباع والطاعة. وهو سؤال يكشف عن حال ومنهجية العبد الْمُخَاطَب تجاه تفاعله وتدبره واتعاظه بكلام ربه سبحانه وتعالى.

ثم يؤكد تبارك وتعالى بمزيد من النظر والتأمل إلى كيف أصبحت بيوتهم مُوحِشة من دمار وهلاك أهلها بالعذاب ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فيا أيها الْمُخَاطَب المأمُور بالنظر والتأمل في قصة قوم ثمود مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام، وكيف دمرنا المكذبين فإليك دليلاً ملموساً ومنظوراً، يؤكد ما أخبرنا به من التدمير والهلاك للكافرين. فيشير الله تعالى إلى الْمُخَاطَب، وهم كل أحد من العباد باسم الإشارة إلى آثارهم ﴿ فَتِلْكَ ﴾ وهو اسم إشارة للبعيد، والذي يمثل هنا البُعد الزمني، والبعد المكاني. ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ ﴾ فها هي بيوتهم التي كانت عامرة بهم، وبحركتهم وضجيجهم، وما هم فيه من خير ونعيم، قد أصبحت اليوم خاوية، خالية منهم، فلا حس لهم، ولا حركة، فأصبحت السقوف متساقطة، وعروشها متهدمة على حيطانها، بسبب ما نالهم من العذاب لظلمهم وكفرهم.

ثم يلفت الانتباه سبحانه وتعالى إلى الغاية والعبرة من ذلك ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فإن فيما فعلنا بهم من العذاب الشديد ﴿لَءَايَةً ﴾ لدليل وحجة وبينة وعلامة واضحة وجلية ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ لقوم يدركون قدرتنا بما فعلناه بمن كفر من قوم ثمود. بما يفيد وجوب الاتعاظ بهم حتى لا يحصل لكم مثل ما حصل لهم. وأن فعلنا بهم مُوجب للطاعة والامتثال. ومن قوة المغزى أن الله تعالى

لم يخص الفرد، بل خص الكثرة ﴿لِّقَوۡمٍ﴾ فهذه الآية العظيمة من التدمير للكافرين كافية لتعديل وتصويب رأي القوم الكثير العدد. فضلاً عن قليل العدد، والفرد الواحد. فمن قوة هذه الآية أنها تجعل القوم يتفقون ولا يختلفون بذلك الحدث من وجوب الطاعة والامتثال والاعتبار، فيكونوا على رأي واحد من قوة موعظته وأثره، ولِمَا فيه من العبر، فلا يختلفون حيالها. لأن الغالب في القوم أنهم يتباينون ويختلفون في الرأي، ولكن من قوة هذا الحدث يجعلهم يتفقون ولا يختلفون في موعظته. ومن دقائق البيان أن السياق لم يخص قوماً دون قوم، بل كان شاملاً لكل قوم أدركوا وعَلِمُوا بقدرة الله تعالى، فإنهم سيعتبرون بقصة قوم ثمود. وفي ذلك إشارة لقوم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولغيرهم ممن يأتي بعدهم من الأقوام حتى تقوم الساعة.

ثم يخبر الله تعالى في ختام قصة قوم ثمود بأنه قَصَرَ العذاب فقط على من كفر، وإنجاء المؤمنين من ذلك العذاب المدمر ﴿ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ فقد أنجينا بفضل قدرتنا وتدبيرنا وإحساننا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ وهم نبي الله صالح عليه السلام، والمؤمنون الذين آمنوا بما جاءهم به، وكانوا يتقون بإيمانهم وتصديقهم عذاب الله تعالى. فهم قد جمعوا بين الإيمان وبين خوفهم من المعصية، ورجاءهم أن يحفظهم الله تعالى وينجيهم من عذاب الدنيا والآخرة. مما يبين أهمية الإيمان وأثره على التقوى، التي تقوى بها الإرادة بالعزم على الطاعة والامتثال، واجتناب المعصية والسيئات. كما يبين النص الكريم عناية الله تعالى بالمؤمنين مما يصيب به الكافرين. وعظيم قدرة الله تعالى. وأن أكثر الناس متبعون لشهواتهم وشبهاتهم فيكفرون. وأن المرسلين عليهم الصلاة والسلام يواجهون المصاعب من أقوامهم، ولكن يصبرون، ويجتهدون في أداء مهام رسالتهم التي كلفهم الله تعالى بها. وأن واجب الإنسان هو أن يعتبر بما قصه الله تعالى من القصص التي تمثل حقائق من مضى من الأمم.

﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

ينتقل البيان الكريم إلى طرف من خبر قصة قوم لوط. بأن الله تعالى أرسل نبيه لوطاً عليه الصلاة والسلام إلى قومه، ولوط هو ابن هارون بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام[١] وقد تم ذكرها

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٤٠)

في سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الحجر. وقد عطف الله تعالى هذه القصة بحرف الواو على قصة قوم ثمود ﴿ وَلُوطًا ﴾ ليفيد الترابط بينها في المقصد من بيان قدرة الله تعالى في إهلاك من عصاه بالكفر ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أي: واذكر أيها الرسول نبأ نبي الله تعالى لوطاً عليه السلام في مخاطبته ودعوته لقومه، حين نهاهم عن فعلهم القبيح، بإتيان الرجال دون النساء، فبدأهم بالسؤال الاستفهامي الذي يفيد الاستنكار والتقبيح لشناعة فعلهم ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ كيف تفعلون هذه الفاحشة وأنتم تفهمون وتعرفون أنه منكر، وما سبقكم إليها أحد من السابقين، مما يفيد الإنكار والتوبيخ مع تقرير التشنيع لها بوصفين: الوصف الأول: في تسميتها: ﴿ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ وهي فاحشة اللواط، فَشَنَّعَهَا عَزَّ وجل بتسميتها ووصفها بأقبح الأوصاف ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ بما يدل على عظيم جُرمها، لأن الفاحشة تُطلق على ما اشتد وعظم قبحه من الأفعال والأقوال، واستقبحتها النفوس السوية واستعظمتها، فهي ما اشتد قبحها، وتناهت في درجات المعصية. وأما الوصف الثاني: فهو علمهم بأنها فاحشة قبيحة، لأن جملة ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ تفيد إثبات علمهم ومعرفتهم بأنها جريمة مخالفة لفطرة الإنسان، ومخالفة لما أودع الله تعالى في هذا الإنسان بأن يكون طلب هذه الرغبة في جنس النساء، وليس في جنس الرجال، وبالتالي فإنها مخترع ومبتكر ابتكروه، حتى أنه لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

ثم يقرر لهم لوط عليه السلام مخالفتهم لما فُطِرَ عليه الإنسان ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ فإنكم تقضون إربكم وشهوتكم بإتيان الرجال؛ وتاركين ما زَيَّنَهُ الله تعالى لكم من النساء، فعدلتم عَمَّا خَلَقَ اللهُ لكم من النساء إلى الرجال، ومن جميل أدب البيان أنه تم الإيضاح عن حقيقة الفاحشة بكلمة ﴿ شَهْوَةً ﴾ فورد البيان بالأسلوب والتوجيه الذي قد توشح بالأدب العميق، وحفاوة الْخُلُق الكريم، مما يفيد أهمية الأدب في مثل هذه الأمور. وبما يدل على أدب الإسلام حتى في عباراته وألفاظه. ثم يقرر أنهم بفعلهم هذا قد انتسبوا للجهل ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ فعدل عن لومهم ونصحهم بحرف ﴿ بَلْ ﴾ إلى تقرير جهلهم، والحكم عليهم بذلك. فإن دينكم الذي تدينون به هو الجهل المنافي للفطرة، والذي خلا من العلم والأدب والأخلاق الكريمة. مما يدل ويفيد أنهم اتبعوا الشهوات، وانغمسوا فيها، وتمادوا من قوة جهلهم إلى مخالفة الفطرة السوية، بل إلى اختراع أقبح الأفعال والأعمال.

فجاء الرد منهم لنبيهم ورسولهم لوط عليه الصلاة والسلام بأقبح الأساليب التي تدل على أنهم قوم سفهاء، يقابلون الحسنة بالسيئة، ويقابلون الحق بالباطل. فقال الله تعالى عن جوابهم ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ فلم يكن عندهم الجواب الحصيف، الذي يستطيعون الرد به على نبيهم لوط عليه الصلاة والسلام ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ فعجزوا عن محاجة رسولهم غير القول: بعزمهم على طرده وإخراجه ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أخرجوا لوطاً ومن انتسب إليه ممن آمن معه. معللين ذلك ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: فإن لوط ومن آمن معه يتنزهون عن فعل ما يفعلونه من الفاحشة، مما يُوجب إخراجهم من قريتهم. وذكروا في عزمهم على إخراج آل لوط فقط ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ ولم يذكروا لوطاً عليه السلام، لأن في إخراج من ينتمون إليه، دليل على إخراجه معهم. كما أنهم أرادوا تجاهل اسمه، من باب التقليل من شأنه عليه الصلاة والسلام. وأرادوا بالإخراج الطرد من القرية ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ ومنعهم من دخولها. ونسبوا القرية لهم ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ إمعاناً في التجبر والتكبر، وكأنها ملك للمجرمين دون غيرهم من المؤمنين.

ووصفوهم بالتطهر ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ مما يفيد أنهم يعلمون أن فعلهم منافي للطهارة، وأن لوطاً ومن آمن معه يتنزهون عن هذه الفاحشة، وأنهم لا يريدون أن يسكن معهم من يتنزه عن فعلهم القبيح. وقد يكون من باب السخرية والاستهزاء، مما يفيد أن من يعمل القبائح لا يستأنس لمعايشة المتنزهين عن القبائح معهم، فإنهم يعادونهم ويبغضونهم. ومن قبح قولهم أن نسبوا القرية لهم، ولم يجعلوا لرسولهم نصيب ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ فإن القرية لكم أنتم، وأما لوط ومن آمن معه فإنهم خارجين عنها، وعن حقوقهم في العيش في قريتهم، فأخرجوهم أجمعين.

ثم أخبر الله تعالى أنه نجَّى لوطاً عليه السلام ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ فقد نجَّى الله تعالى نبيه لوطاً وأهله من المؤمنين، واستثنى من أهله الناجين امرأته، لعدم إيمانها، فكانت من الكافرين ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: فحكم الله تعالى عليها حكماً بأن تكون من الباقين في عذابه عَزَّ وجل، والغائبين عن النجاة. لأنها كانت مع قومها في ملة الكفر. قال ابن جرير الطبري

رحمه الله تعالى: ولم يقل: من الغابرات، لأنه أُريد أنها ممن بقي مع الرجال، فلمَّا ضم ذكرها إلى ذكر الرجال قيل ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[١] أي: من الذين غُبِرُوا في ديارهم، أي بقوا فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث، وكانت كافرة، موالية لأهل سدوم[٢] فكان جزاء كفرها أنها مع الهالكين ممن كفر.

ثم يخبر عَزَّ وجل عن نوع العذاب الذي أهلك به قوم لوط الذين كفروا، بأن أمطر عليهم العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ قال ابن عباس: أي الحجارة. قال مجاهد: نزل جبريل، فأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط، ورفعها، ثم قلبها، فجعل أعلاها أسفلها، ثم أُتبِعُوا بالحجارة[٣] فأمطر الله تعالى عليهم الحجارة، بما يفيد القذف بالحجارة التي أهلكتهم ودمرتهم، وقد أورد الله تعالى هلاكهم بأسلوب التأكيد والمبالغة في هلاكهم، وذلك بتكرار فعل الإمطار، فبعد أن ذكر سبحانه وتعالى الفعل الأصلي ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ ألحقه بالتأكيد ﴿مَّطَرًا﴾ وهو ما يتحقق به التأكيد والمبالغة عن شدة ما أمطرهم به من الحجارة. ويفيد ويبين معنى فعل الإمطار ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ الإنزال من العلو للحجارة، لتكون أكثر اثراً عليهم، ولتفيد كثرة تعاقب الحجارة عليهم في السقوط، وكأنه مطر من كثرته وقوته وعلوه، غير أنه من الحجارة. ثم يُقبِّح اللهُ تعالى ما أصابهم من العذاب، إمعاناً في ذمهم ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فبئس ذلك المطر، الذي أُمطِر به القوم الذين أنذرتهم رُسُلُهم فكذبوهم، فقُبِّحوا من مُنْذَرِين، إذ يأتيهم الحق بالدليل والبرهان فيتولون عنه مدبرين.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٠٨/١٠)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١٢٤/٢)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٥/٣)

بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

فبعد أن عَرَض تبارك وتعالى طرفاً عن قصص بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبيان ما فيها من العبر والمواعظ العظيمة الدالة على كمال قدرته، ووحدانيته، وربوبيته جَلَّ جلاله، ينتقل السياق الكريم والبيان العظيم المجيد إلى التوجيه بحمده وشكره، ومن ثم السلام والثناء على عباده المصطفين الأخيار، ليبدأ بعدها محاورة العقول والأذهان بما يثبت للمُخَاطَبين أنه الله تعالى الواحد الأحد، ورب كل شيء ومالكه، وأنه لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى. فيتوجه الخطاب إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبع له عليه الصلاة والسلام ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يا أيها النبي ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ احمد الله تعالى على جميع ما أنعم وتفضل به عليك من الإنعام، وعلى ما تصف به ربك من كمال الصفات، والتي منها: الرحمة والمغفرة، والوحدانية والقدرة، والعزة، ومن ذلك نصره للمرسلين والمؤمنين، وإهلاك الكافرين، وما قَصَّه من قَصَص الوعظ عن الأمم السابقة. وقد ورد الحمد عاماً ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ليشمل جميع ما يحمد العبد به ربه عليه من أصناف الإنعام الظاهرة والباطنة، والتي لا تُعَد ولا تُحصى.

وقد ورد التوجيه بصيغة الأمر ﴿ قُلِ ﴾ ليفيد الوجوب، أي: وجوب الحمد من العبد لربه تبارك وتعالى. والحمد هو الثناء، والاعتراف بأن كل نعمة هي من الله تعالى، سواء كانت جلب نفع، أو طرد وإبعاد سوء، وأن ينسب الفضل والخير لله تعالى بما أنعم، فيقول ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ وفي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم به، ما يدل على علو منزلة الحمد، وعظيم ثوابه، وأنه واجب على غيره كما هو واجب عليه، لأن المؤمنون تبع لرسولهم صلى الله عليه وسلم.

ثم يأمر الله تبارك وتعالى بالثناء على المصطفين الأخيار ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ وقل يا أيها النبي: سلام على عباده الذين اصطفى. والسلام دعاء بالأمن والسلامة في الدنيا والآخرة على من يتم السلام عليهم. وأما عن المقصود بعباد الله الذين اصطفى فيقول ابن كثير رحمه الله تعالى: وأن يُسَلِّم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم، وهم رُسُله وأنبياؤه الكرام، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام[١] وقال ابن عباس رضي الله عنهما،: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، اصطفاهم الله لنبيه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٨١)

وبمثله قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى[١] وقيل: أنهم الذين وحدوه، وآمنوا به. رواه عطاء عن ابن عباس. وقيل: أمة محمد صلى الله عليه وسلم. قاله ابن السائب رحمه الله تعالى[٢] قال الشوكاني رحمه الله تعالى: قيل: والمراد بعباده الذين اصطفى: أمة محمد صلى الله عليه وسلم، والأولى حمله على العموم، فيدخل في ذلك الأنبياء وأتباعهم[٣] فدلالة النص الكريم أنه أمر شامل للأنبياء والمرسلين وأتباعهم المؤمنين، ولمن اصطفاهم الله سبحانه وتعالى؛ فجعلهم أصحاباً لرسوله محمد عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم وأزكاه. ويشمل أمة محمد عليه الصلاة والسلام، حيث وفقهم عَزَّ وجل للإيمان، فيكون هذا اصطفاء لهم من ربهم، أن وفقهم للإيمان.

ومن رفعة هؤلاء المصطفين الأخيار عند الله تبارك وتعالى أن أضافهم إليه، فقال تعالى ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فأضافهم في العبودية ﴿عِبَادِهِ﴾ وأضافهم في الاصطفاء ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فسماهم عباده تكريماً لهم، وكذلك زادهم تكريماً باصطفائهم، فهو الذي اصطفاهم. ليدرك ويعرف المؤمن أن فضل الله تعالى عليه عظيم، فهو الذي هداه بفضله وكرمه، فجعله من المصطفين الأخيار، فيلزمه دوام الطاعة لله تعالى، وحمده وشكره، وكثرة الثناء عليه سبحانه وتعالى. كما أن في هذا الأمر بالسلام على الذين اصطفاهم الله تعالى، عناية بهم، وإظهار للتواصل بين المؤمنين، مهما ابتعدت بهم الأزمان. وفيه بيان انتفاع المؤمنين بدعاء بعضهم لبعض، وأن الأدنى يدعو للأعلى مكانة ومنزلة، كما أن الأعلى يدعو للأدنى منزلة. فالخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يدعو للمصطفين بالسلام وهو سيد الخلق، وكذلك يدعو المؤمنون على اختلاف منازلهم ودرجاتهم للأنبياء والمرسلين وغيرهم من المؤمنين. فما أحوج المؤمن للمؤمن. فإنه عِلْمٌ رفيع، وأدب جَمٌّ عظيم. فالحمد لله على فضله وكرمه بهذا الدين العظيم، الذي هدانا إليه بكرمه، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله رب العالمين.

ثم ينتقل البيان إلى تصحيح مفاهيم العباد المتعلقة بقضايا الشرك، ووجوب توحيد الله تعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هل الله تعالى الذي خلق فسوى، والذي أنعم بنعمه التي لا تعد، وإحسانه الذي لا يُحد خير وأبقى أم العاجزون الذين يعبدهم المشركون من دونه سبحانه وتعالى؟ أولئك الذين اتصفوا بالعجز عن الخلق والتدبير، ودفع الشر وجلب الخير، فإنهم لا يَخْلُقُون، ولا يدفعون شراً، ولا يجلبون خيرا ولا نفعاً. فهو استفهام تقريري بأن الأخير هو الله تعالى، وهو كذلك سؤال استفهام يعزز جانب التأمل والنظر، والتفكر في الحقائق بأدلتها وشواهدها العينية والمحسوسة، الموصلة إلى نبذ الشرك وتقرير إفراد الله

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/٩٨-٩٩)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/٧٦)

(٣) الشوكاني، فتح القدير (٤/١٤٥)

تعالى بالخلق والملك والعبادة، ففكروا بعقولكم أيها الناس، وخاصة المشركين، لأن التفكير والتأمل في الحقائق هو الوسيلة التي تُعيد العاقل إلى صوابه، عن طريق معرفة الحق والحقائق، وأدلتها وشواهدها. مما يبين ويفيد أن هذا الدين العظيم هو دين هداية بالتعليم والإقناع بالحقائق التي تقود إلى إدراك الحق والحقيقة، وأنه ليس دين قمع وإجبار لطاعة الله تعالى، فلكل امرئ ما كسب من الخير والطاعة والانقياد لله تعالى، وعليه ما اكتسب من الفجور والكفر والفساد.

ثم ينتقل تصحيح مفاهيم العباد المتعلقة بقضايا الشرك، ووجوب توحيد الله تعالى من العام إلى التفاصيل الجزئية التي تقرر وجوب نفي الشرك، ووجوب إفراد الله تعالى بالتوحيد والعبادة، وأنه رب كل شيء ومالكه ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ فبدأ البيان بالاستفهام التقريري والاستنكاري في نفس الوقت، والذي مطلعه ﴿ أَمَّنْ ﴾ وهو الحرف الذي يتحقق به امتداد الانتقال للمقارنة، والتي مفادها: أمن يفعل هذا الخلق والتدبير كمن هو عاجز عن شيء منها؟ ففي قوة دلالة السياق ما يحقق معنى انتفاء التماثل بين من يفعل وبين من هو عاجز عن أبسط الأشياء، وبالتالي تحقق في الاستفهام استنكار ما هم عليه من الشرك. فيثير التساؤل: أين عقولكم إذاً. فهل آلهتكم العاجزة خير ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ فهل الخالق الذي أنشأ السماوات العالية، المليئة بالنجوم الزاهرة والأفلاك السائرة الدائرة، والشمس الساطعة، والقمر المنير، هل هو خير، أم تلك الأصنام العاجزة التي لا تتحرك؟

وهل من خلق ﴿ وَٱلْأَرْضَ ﴾ العظيمة في خلقها وقوتها وهيئتها، وما فيها من الجبال الراسية، والأنهار الجارية، والبحار العظيمة التي لا تطغى على اليابسة، وما جعل فيها من الفجاج، والأودية والسهول، وما في جوفها من المياه، وما ينبت لكم فيها من الشجر والزروع، هل هو خير، أم تلك الأصنام العاجزة التي لا تتحرك؟ وهل من أنزل المطر ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ وأنزل الماء لكم من السماء غيثاً لكم. هل هو خير، أم تلك الأصنام العاجزة التي لا تتحرك؟ وكلمة ﴿ لَكُم ﴾ من قوله عَزَّ وجل ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ تفيد التخصيص، بأنه من أجلكم، فأنتم المخصوصون به أولاً، وبالتالي فإن غيركم من المخلوقات كالدواب والأنعام والحشرات تابعة لكم في الاستفادة منه، وفي هذا غاية التكريم لجنس الإنسان، ومع ذلك يكفرون ويشركون معه غيره. اسئلة تستثير العقول للتفكر والتأمل في حقائق الكون المبهرة، التي تدل على عظمة الخالق عَزَّ وجل، وأنه رب كل شيء ومالكه، وأنه لا معبود بحق إلا هو جَلَّ جلاله.

ثم يذكر تبارك وتعالى نعمة الإنبات التي لا يقدر عليها أحد من الخلق ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ ﴾ وأنبت لكم من الأرض بهذا الماء بساتين ومزارع، قد اتصفت بالجمال الذي تبتهج به قلوبكم، فيدخل السرور عليكم بثمارها، وزروعها، وتعدد أنواعها وأشكالها وأحجامها. ثم ينتقل إلى إيراد وبيان عجزهم عن إنبات ذلك لولا فضل الله تعالى عليهم ﴿ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ﴾ فلم تكن لكم القدرة على إنبات وإخراج الشجر والزرع من الأرض، لولا أن الله تعالى دبَّر ذلك بالإنبات والإخراج، وحملها الثمار لكم، بهذه الصورة والهيئة التي تبتهج بها النفوس. فإن قدرة العبد لا تتجاوز الأخذ بالأسباب، فيحرث ويضع البذور اليابسة الميتة في الأرض، ثم يتولى اللهُ تعالى إخراج الأخضر من اليابس، والحي من البذور الميتة. ويعجز الإنسان عن إثمار الشجر، ولكن الله تعالى بفضله يُخرج لكم الثمار من الأشجار. فهل تلك المعبودات من دونه تقوم بشيء من ذلك؟ فيقرر سبحانه وتعالى بذلك انتفاء عمل وجهد ونفع كل معبود من دونه عَزَّ في علاه، فليس لتلك المعبودات شيء من ذلك التصريف والإنعام، فبهذا يحصر ويقصر البيان الكريم جميع ما ذُكِر له وحده عَزَّ وجل، من دون مشاركة لغيره فيه. وهذا غاية الإثبات لوحدانية الله تعالى، وأن القدرة له وحده فيما خلق، وليس لأحد حق القدرة والتصرف فيما خلق. وإنما جعل للعباد قدرات محدودة من خلال الأخذ بالأسباب المحددة منه عَزَّ وجل، كحرث الأرض، وبذر البذور، ونحو ذلك.

ثم يأتي التدرج للوصول بالْمُخَاطَبين إلى السؤال الاستفهامي الذي يؤكد ويقرر لهم، بأنه ليس ذلك الخلق والعطاء والتدبير إلا له وحده سبحانه وتعالى. فليس لغيره فيه شيء ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أمعبود مع الله ربكم وخالقكم وخالق هذا الكون بعد أن بين وأوضح ما تشاهدون وتعرفون من خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الأرض؟ فهل هناك إله مع الله تعالى؟ فهو سؤال استنكار وتقرير بعد أن ألجم وقرر أصحاب العقول بالحقيقة. فلا يسعهم إلا الإقرار به، وتكذيب أنفسهم به. ففيه إبطال وإفساد لما اتخذوا من خلال إيراد السياق الكريم بأسلوب الاستفهام الاستنكاري من أن يكون مع هذا الخالق العظيم المدبر شريك أو خالق آخر غيره عَزَّ في علاه. فهل هناك إله غير الله تعالى قام بذلك ودبره أحسن وأكمل تدبير؟ ليكون الجواب من كل عاقل: ليس في الوجود غيره سبحانه وتعالى مدبر لذلك. إذاً كيف تعبدون غيره وهو المنفرد بما خلق وأعطى ووهب ودبر؟ فَيُلْجِئ الْمُخَاطَب إلى الاعتراف والتقرير بالحق، لأنه لا يستطيع أي مُخَاطَب إثبات خلاف ما أثبته الله تعالى، وقرره لنفسه العظيمة الكريمة. وفي هذا عظمة الإثبات، وجلال البيان، بما يعطي ويبين أن منهج الإسلام منهج حقائق، يقوم على الإقناع بالواقع والحقائق والبراهين الباهرة.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى بأن انصرافهم عن الحق مبني على الانحراف في التقدير، بإعطاء ما هو حق لِلْمُنعِم عليهم إلى العاجز عن الخلق والإنعام ﴿ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴾ أي: يعدلون عن الحق إلى الباطل،

فيميلون عن الصواب إلى الخطأ، ويخرجون به على غير وجهه الصحيح. ويعدلون غيره به سبحانه وتعالى، فيجعلون معبوداتهم نظيراً له عَزَّ وجل. فينحرفون عن الحق إلى الباطل بميولهم الفاسدة، فيشركون مع الله تعالى آلهة أخرى. مجانبين للحقائق الباهرة، والأدلة الكونية الواضحة. فبالرغم من ذلك فإنهم يجعلون لله عَزَّ وجل نظيراً ومثيلاً. فإن حقيقتهم كما تم بيانها هو انحرافهم عن الحق رغبة في الباطل.

وقد بدأ تقرير حالهم بأنهم ﴿قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ بحرف ﴿بَلۡ﴾ للإضراب الانتقالي عن الاستفهام الإنكاري إلى تقرير حالهم بأنهم مكابرون على آيات الله تعالى الكونية. وتقرير انصرافهم إلى معبوداتهم العاجزة، فيجعلون غيره عديل ومماثل له عَزَّ في علاه، بل يعدلون عن الحق إلى الباطل. كما ورد وصف عدولهم بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ ليعطي دلالة الاستمرار في استكبارهم وغيهم أمام ما اتضح لهم من الحق وظهوره. فإن قوله عَزَّ وجل ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ تقرير بأنهم مدركون للحق ولكنهم يعدلون عنه إلى الباطل استكباراً.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى وجه آخر من الأدلة التي يتعايشون معها ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فبعد أن ذكر سبحانه وتعالى في الآية السابقة خلق السماوات والأرض، وإنزال المطر من السماء، وإنبات الأرض بعد موتها، انتقل السياق إلى بيان تفاصيل ما في الأرض من الآيات الباهرات، والحجج المقنعة لكل راغب في الحق. فقال تعالى ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ فمن هو الذي جعل الأرض متصفة بالقرار والسكون، فلا تميد بكم، ولا تتحرك ولا ترجف بساكنيها؟ فجعل الأرض مكاناً يستقر فيه الإنسان، والحيوان، والنبات، وما خلق على ظهرها وفي باطنها من المخلوقات، فجعل ذلك مثار تأمل وتفكر.

وكلمة ﴿قَرَارٗا﴾ تفيد الثبوت والاستقرار من كل وجه، ومن ذلك: استقرار الحياة، واستقرار طلب الرزق، والتجارة، وتبادل المنافع، والحرث والزرع فيها، والمشي والسير عليها. بما يفيد أنه أنعم عليكم بها، وبما يتناسب مع عيش الإنسان عليها، وتوافقها مع حال الإنسان. فَمَن قدر هذا التوافق بين حاجة الإنسان وهيئة الأرض، وما فيها من خيرات؟ ليتحقق بها ما يحتاجه الإنسان. بل أوجد فيها من التوافق والتسخير ما جعل فيها معاشاً لجميع ما يحتاجه الإنسان. فجعل الله تعالى فيها معاشاً وقراراً للحيوان، وللزروع، من أجل معاش الإنسان. كما جعل فيها الهواء الذي يتنفسه الإنسان، ولا يعيش إلا به، فجعله في كل مكان، ولا يستطيع أن يحجبه أحد عن أحد، بل وجعل فيها من كل شيء بقدر حاجة الإنسان. وقائمة تطول لا يحصيها الإنسان بالتفنيد لو أسهب في بيانها وتعدادها. فالحمد لله تعالى على إنعامه وفضله.

ثم ينتقل البيان إلى آية ما شق وأودع وأجرى في الأرض من الأنهار الجارية والمتدفقة بالماء الذي لا ينقطع ولا يتوقف ﴿ وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا ﴾ وجعل في وسط الأرض أنهاراً من المياه الكثيرة المتدفقة بالماء العذب، بأكثر مما تحتاجون، فتشربون وتغتسلون، وتَسْقُون منه مزارعكم وأنعامكم. أليس في هذا الامتنان آية لكم بأنه لا إله إلا خالقها ومدبرها، وخالقكم ومدبركم. ثم ينتقل إلى نعمة خلق الجبال، وغاية خلقها ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ ﴾ وجعل للأرض ما يثبتها، فلا تهتز، ولا تميل بكم، بما وضع فيها من الجبال العظيمة في تكوينها، ورسوخها في باطن الأرض، وارتفاعها الشاهق. أليس في هذا الخلق، وفي هذه العلاقة بين الجبال والأرض ما هو آية عظيمة على حُسن ما صنع الله تعالى، وحُسن تدبيرها البديع، من الخالق العظيم، الذي خلقها وخلقكم، وخالق الكون كله. ومن بديع البيان أن ذكر سبحانه وتعالى الجبال بمقصدها الأصلي ﴿ رَوَٰسِيَ ﴾ وذلك استغناء بالهدف والغاية عن تسميتها باسمها: الجبال، وكذلك لإظهار وإبراز الهدف والغاية منها للْمُخَاطَب، وإشغال فكره بدلالة الرَّواسي.

ثم ينتقل الاستدلال العظيم على وحدانية الخالق عَزَّ جل بآية عظيمة أخرى، وهي المتعلقة بالإعجاز من التقاء واختلاط نوعين مختلفين من المياه دون أن يؤثر أحدهما في الآخر. فلا يؤثر ماء البحار في الأنهار، بان يطفوا ويطغى عليه لقوته وسعته، وكذلك لا يؤثر ماء الأنهار في البحار على كثرة ما تَصُبُّه الأنهار فيها من المياه الحالية العذبة ﴿ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًا ﴾ فبالرغم من اتصال الأنهار العذبة بالبحار والمحيطات المالحة إلا أن ماء كل واحد منهما لا يؤثر في الآخر، فعلى كثرة الأنهار وتدفق مياهها العذبة في مياه البحار والمحيطات، إلا أن ملوحة البحار لا تتأثر بكثرة ما يُصَبُّ فيها من المياه العذبة. وكذلك بالرغم من اتصال البحار والمحيطات العظيمة بأطراف الأنهار إلا أنها لا تطغى ولا تطفوا عليها بشيء من مياهها المالحة. فمن وضع هذا الحاجز المانع بالتدبير العجيب الذي يعجز عن مثله كل مخلوق. أليس هو الخالق العظيم؟ أفلا تتفكرون وتتأملون في آياته وحججه الظاهرة لكم، فتوحدونه وتعبدونه وحده لا شريك له، وتطيعون رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أرسله به إليكم.

أليس هذا البيان حجة عليكم بقوة استدلاله، وعظيم بيانه. فإن تلك الآيات تستثير النفس والعقل والفكر والتأمل بما يجعلها تستيقن يقيناً جازماً بأن الله تعالى هو الإله الحق، ولا إله غيره، وأن له الخلق وحده لا شريك له، ويجب ألا يُعبد إلا هو عَزَّ في علاه. ولذلك عَقَّب تبارك وتعالى بسؤال يستثير النفس من جميع جوانبها وبكل حواسها ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أبعد كل هذا ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ سؤال استفهام يؤكد ويقرر الْمُخَاطَبين بأنه ليس هناك إله غير الله تعالى بما علمتم من تدبيره لما خلق. فليس هناك شريك له في ملكه عَزَّ وجل. فإنه سؤال يقرر أن العبودية له حده عَزَّ في علاه ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أمعبود مع الله ربكم وخالقكم وخالق

هذا الكون بعد أن بين وأوضح لكم مما تشاهدون وتعرفون من عظيم خلقه، وكمال تدبير سبحانه وتعالى. بل حتى في أسلوب تعليم العباد آية إعجاز، بهذا النسق والسياق، ولفت الانتباه إلى الآيات، وشد الذهن والفكر إلى التدبر والتفكر، والوصول إلى القناعة التامة بأن الله تعالى هو الخالق وحده لا شريك له، وأن له الملك كله، وأنه القاهر فوق عباده، وأنه المسخر، وأنه لا معبود بحق إلا هو العزيز الحكيم.

ثم يبين تبارك وتعالى حال المشركين، في فهمهم لآياته الكونية ﴿ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ فإن أكثر حال هؤلاء الكافرين المشركين وغيرهم من الكفرة هو حال الذين لم يتفهموا قدر وعظمة خالقهم، من خلال تَدَبُّرِهِم لعظمة مخلوقاته، وعظيم تدبيره، فكأنهم بمنزلة الجهالين بحقائق الخلق وعظمة ما خلق الخالق عَزَّ في علاه. ومن دقائق الحكم أن الله تعالى حكم وقرر بأن الأكثر ﴿ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ مما يبين أن القلة هم الذين يعلمون فيؤمنون، بما يبين أن عدد الكفرين أكثر من عدد المؤمنين. وهو الحاصل والمشاهد في كل الأزمان. ومن قوة البيان كذلك أن ختم الله تعالى الآية التي قبل هذه الآية بقوله عَزَّ وجل ﴿ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴾ فيعدلون غيره به سبحانه وتعالى، فيجعلون معبوداتهم نظيراً له عَزَّ وجل. ويعدلون عن ربهم الخالق إلى المخلوق من المعبودات، فينحرفون عن الحق إلى الباطل بميولهم الفاسدة، فيشركون مع الله تعالى آلهة أخرى. مجانبين للحقائق الباهرة، والأدلة الكونية الواضحة. فأصبح تمام كل آية يعضد التي قبلها في تصوير حال الكافرين.

ثم ينتقل السياق من البيان بالآيات الكونية إلى البيان بالآيات النفسية، والآيات المتعلقة بحيات المخلوقين وتعاقبهم بالتناسل والتكاثر، جيل بعد جيل. فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ سؤال عمن يجيب دعاء المضطر، ويكشف ما اعتلاه من الاضطراب والهلع حين يَمَسّهُ السوء والبلاء بما أقلقه وهاله من الأمر، وما تعسر عليه من المطالب، فيدعو ويستغيث. هل هناك أحد يُخرجه ويُخَلِّصه مما هو فيه إلا الله تبارك وتعالى ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ هل من مجيب للمضطر غير الله تعالى، حين يدعو بدعائه واستغاثته؟ إنه سؤال يُعيد الإنسان إلى حالته النفسية عندما يجتاحه بلاء، ويداهمه ما يهلع منه، وما يجعله في حالة من الاضطراب والقلق، من عجز المواجهة والمعالجة، فيدرك أنه لا مُخَلِّص له مما هو فيه إلا خالقه تبارك وتعالى. فيلتجئ إليه في تلك الحالة، ولا يلجأ لغيره من المخلوقين، ولا إلى ما يعبدهم من دون الله عَزَّ في علاه. فيعلم أنه هو وحده الذي يُجِيب المضطر حين يستغيث به ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ وهو القادر وحده لا شريك له على كشف الكرب ﴿ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ وإنجائه مما هو يتلجلج فيه من السوء الذي مسه، سواء كان من أمر أحدق به، أو من ظلم ظالم، وقهر معتدي، أو من مرض أَلَمَّ

به، أو هلع في الأرض وقع فيه، أو موج في البحر طغى عليه، أو تاه وحيداً في البراري، أو حين يكون في قبضة من يقهره ويذله من الناس. وغير ذلك من مواطن الاضطرار.

لقد كان انتقالاً دقيقاً إلى خاصة النفس البشرية، وإلى الحقيقة التي يحسها المضطر في قلبه عندما يفقد الأسباب. ومن دقائق البيان أن أورد الله تعالى الاضطرار بصيغة العموم ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ ليستوعب جميع أنواع وحالات الاضطرار المتباينة والمختلفة بين الناس، في نوعها وشدتها، وحالاتها، وأوقاتها، ودرجاتها. كما ورد السوء بصيغة المفرد ﴿ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ لأن السوء واحد مهما تعددت أنواعه ودرجاته، وليستوعب كشف ورفع كل سوء، مهما كانت حدته، ونوعه. وأفاد لفظ الكشف ﴿ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ الرفع والإزالة، فصورة الكشف كأنه إزالة غطاء وحاجز وحاجب حال بينه وبين الطمأنينة، فأرعد قلبه، وأقلق فؤاده. فلا طمأنينة له إلا بإزالته.

ثم ينتقل البيان إلى حالة من حالات الناس الاجتماعية ﴿ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ومَنْ هو الذي يجعل بعضكم يخلف بعضاً؟ ليشمل التوارث بعد الموت، ويشمل تعاقب الأجيال، فينتهي جيل ويبقى جيل، في نظام بديع دقيق، إذ يذهب الجيل السابق في تدرج ونظم عجيب، ويتوالد حينه وبعده جيل بنظم بديع، بحيث يلتقي ويأخذ الجيل اللاحق من الجيل السابق جميع ما لديه من العلم والمعرفة والمفاهيم، وما ترك مما جمع من أمور الدنيا، وذلك في نظم وتسلسل عجيب ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أبعد كل هذه الحجج من الآيات البينات الواضحات أيكون مع الله تعالى إله غيره؟ هل هناك إله مع الله رَتَّبَ ونَظَّمَ هذا الاستخلاف؟ فكل عاقل يقول: لا أعرف أحداً يرتب هذا النظم العجيب إلا خالق الإنسان، وخالق هذا الكون العظيم. إذاً فلماذا تشركون مع الخالق غيره فيما هو له من التوحيد، والألوهية، والربوبية والعبودية؟ لماذا تشركون معه غيره ممن هو دونه، والخلق كلهم دونه سبحانه وتعالى، وهو المتصف بكمال القدرة، وغيره مُتَّصِف بالعجز؟ ولماذا لا تطيعونه، وتطيعون رسوله صلى الله عليه سلم؟ ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ سؤال تعجب واستنكار لمن لم يتعظ بعد كل هذا البيان الواعظ العظيم. فهل هناك شريك مع الله تعالى بعد أن عرفتم الحقائق؟ فهل لازلتم على إصراركم بعد أن أقام ربكم عليكم الحجة؟ سؤال يعيد تفكير الإنسان، ويرده للحق بأسلوب استنطاق العقل والفكر بالتأمل في قوة الحجج والبراهين.

ثم يصف حالهم، وما هم عليه من نسيان نِعَم الله تعالى عليهم ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ فإن تذكرهم وتأملهم لإنعام الله تعالى عليهم قليل. مما يفيد: لو أنهم يتأملون في مجريات هذا الإنعام، وهذه الآيات العظيمة، لما كان منهم هذا الكفر، وهذا الشرك. مما يفيد أهمية التأمل والتفكر فيما أنعم الله تعالى به على عباده،

حتى يزداد الإنسان يقيناً، ويزداد إيماناً، ويزداد شكراً لله تعالى، ويتعلق قلبه بربه عَزَّ وجل. فجملة ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ علة وسبب ثالث لكفرهم وشركهم. حيث تناولت الآيتين السابقتين سببين آخرين، هما: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ فيعدلون غيره به سبحانه وتعالى، فيجعلون معبوداتهم نظيراً له عَزَّ وجل. فينحرفون عن الحق إلى الباطل بميولهم الفاسدة، فيشركون مع الله تعالى آلهة أخرى. مجانبين للحقائق الباهرة، والأدلة الكونية الواضحة. أما السبب الثاني فهو: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فإن أكثر حال هؤلاء المشركين وغيرهم من الكافرين هو حال الذين لم يتفهموا قدر وعظمة خالقهم بالتدبر والتفكر في عظمة مخلوقاته، وعظيم تدبيره، فكأنهم بمنزلة الجهالين بحقائق الخلق وعظمة ما خلق الخالق عَزَّ في علاه.

وفي تكرار حرف ﴿ بَلْ ﴾ مرتين ما يفيد الحيرة التي هم فيها، واضطرابهم وتَنَقُّلهم في هذه الحالات الثلاث، بسبب ما هم فيه من التيه والحيرة. ومن قوة البيان في كشف علتهم وحالتهم أن ختم الله تعالى الآيتين التي قبل هذه الآية بحالتين من الحالات التي أبعدتهم عن الحق، وهي ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ والثانية ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ والثالثة التي خُتِمَت بها الآية الثالثة ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ وفي هذا تنبيه غيرهم على مخاطر هذه الحالات، ووجوب الحذر منها، وتجنبها، لأنها تُوقع الإنسان في المهالك. فأصبح تمام كل آية يعضد التي قبلها في تصوير حال المشركين، وكل من كفر بالله تعالى.

ثم ينتقل السياق الكريم في تدرج عظيم إلى بيان المزيد من آيات الله تعالى، ودلائل عظمته وربوبيته وألوهيته ووحدانيته الظاهرة في الجوانب العظيمة الباهرة، المرتبطة بحياة الإنسان، ومعايشته لها، وتعامله معها ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فمن يرشدكم في ظلمات الليالي عند ترحالكم في البر والبحر ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ سؤال استفهام يقرر به الْمُخَاطَب بما لا يستطيع أن ينكره، عندما يكون في ظلمات الليل حين أسفاره وتنقله بين المفاوز والجبال والصحاري، أو بين عباب البحر وأمواجه مبحراً، فيسير بما يهتدي به من مواقع النجوم وحركتها التي يعرف بها الاتجاهات، شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، فيحدد وجهته بناء على ذلك. فهل هناك خالق غير الله تعالى خلق ودبر لكم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر؟ سؤال يقرر به الْمُخَاطَب، ليقول: ليس أحد إلا الخالق سبحانه وتعالى. فإذاً لماذا تُشرك معه غيره؟

ثم يردف ويُلحق هذا السؤال المثير للحقائق بسؤال آخر، وعن نعمة وآية أخرى ﴿ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ ومن هو الذي يرسل لكم الرياح لتكون مبشرة لكم بما تحبون من نزول الغيث، وذلك بما تحمله ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ أي: ما تحمله الرياح من السحب الممطرة أمامها، والتي هي من رحمة الله تعالى، فتستبشرون بالخير فرحاً بها. فهل هناك خالق غير الله تعالى يسوق ذلك الخير إليكم؟ فليس هناك عاقل يقول بأن تلك المعبودات العاجزة أو غيرها من المخلوقات هي التي حركت الرياح والسحاب، فليس هناك قادر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى، خالق كل شيء، ومدبر الكون كله.

ثم ينزه الله تعالى نفسه ومقامه الشريف عن الشرك، بتأكيد وحدانيته، وقدرته ﴿ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فتنزه وتقدس الله تبارك وتعالى عن شرك المشركين والشركاء من أي نوع. فإنه الواحد القهار، الخالق المدبر للكون.

ثم ينتقل السياق بالبيان العظيم للمرة الخامسة إلى شد انتباههم، ولفت أنظارهم نحو بدأ خلقهم موتهم، ثم بعثهم، وإقران ذلك بالرزق والعطاء والتدبير له جَلَّ جلاله ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ فمن الذي بدأ خلقكم والخلق جميعاً، ثم يعيده بعد موته ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ فهل هناك خالق غير الله تعالى بدأ خلق هذا الكون؟ سؤال يعيد الإنسان إلى صوابه بالتفكير والتأمل. فالجميع يقر بأن خالق الخلق هو الله عَزَّ في علاه. ولا أحد من العقلاء يقول بغير ذلك. فالذي بدأ الخلق من العدم، لا يعجزه أن يعيده بعد فنائه، لكمال قدرته، فأين الاستحالة في ذلك، بما يقرر به كمال قدرته عَزَّ وجل، والتي يثبت بها البعث والنشور بعد الموت والفناء، ويزول بها اعتقاد الاستحالة. فورد السؤال بما يثبت للعباد كمال قدرته عَزَّ وجل، مما يعلمونه من خلق أنفسهم، وخلق الكون جميعاً. ليتحقق به إرغامهم على الفهم والعلم، مما يوجب عليهم العمل لذلك اليوم بالطاعة له سبحانه وتعالى وفق ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يتدرج إلى ما تقوم به الحياة من الأرزاق ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ سؤال استفهام عن مصدر الرزق الذي يتنعم به العبد. ليقرر العباد بالحقائق التي يتعايشون معها كل لحظة من لحظات حياتهم. فمن يرزقكم المطر من السماء الذي تشربون منه، وتسقون به مزارعكم وأنعامكم؟، ومن يرزقكم النبات والخضار والفواكه من الأرض؟ وغيرها من المعادن. ويتبع ذلك رزق الأموال، بإيجاد أسبابها، والتوفيق لتحصيلها. هل

هناك أحد غير الله تعالى يستطيع ذلك؟ فالجواب من كل عاقل هو: لا قدرة لأحد غير الله تعالى. فإذاً لماذا تشركون معه غيره في العبادة من الأوثان غيرها؟ ففي هذا إلجام لكل مشرك، ولكل ناكر لإنعام الله تعالى.

ثم يُلحِق تلك الأسئلة بسؤال تَعَجُّب واستنكار لمن لم يتعظ بعد كل هذا البيان الواعظ العظيم ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أبعد كل هذا البيان أيكون مع الله تعالى إله آخر؟ فإن تلك الآيات تستثير العقل والفكر والتأمل والنفس، بما يجعلها تستيقن يقيناً جازماً بأن الله تعالى هو الإله الحق، ولا إله غيره. ولذلك عَقَّب بهذا السؤال الذي يستثير النفس من جميع جوانبها وبكل حواسها ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أبعد كل هذا ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ سؤال استفهام يؤكد ويقرر الْمُخَاطَبين بأنه ليس هناك إله غير الله تعالى، بما عَلِمتُم من تدبيره لكم من الخلق والرزق.

ثم يعالج شأن من استمر في نكرانه بالتعجيز عن الإتيان بالبرهان والدليل المخالف لهذه الحقائق ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قل لهم يا أيها الرسول صلى الله عليه سلم ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ هاتوا وأخرجوا حجتكم ودليلكم على صدق شركم إن كنتم غير مُقرِّين بوحدانية الله تعالى. فأثبتوا صدق كلامكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فإن كنتم صادقين في أن لله تعالى شركاء فهاتوا برهانكم. بما يعني ويفيد: إن لم تُثبتُوا زعمكم بأن لله تعالى شريك، فإنكم كاذبون في ادِّعَائكم الباطل. وفي هذا إلجام لهم، وكشف لباطل ما هم عليه، لأنه لا يمكن أن يأتوا بشيء من العدم. فالمعدوم لا يمكن أن يكون موجوداً، لأن شركهم كذب وافتراء لشيء معدوم، لا حقيقة له. مما يبين قوة حجج الله تعالى، وبما يبين أن هذا القرآن معجز بقوة حججه وبراهينه، وأساليبه. وأنه يتعامل مع العباد بالحقائق، ويصحح الفكر والعقل بالحقائق التي يقرها العقل الصحيح، وتقبلها الفطر السليمة.

فأجملت وأجمعت تلك الآيات المتعاقبة على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، والملك، والبعث بعد الموت، فإنه هو الخالق المالك المدبر، الذي انحصرت الربوبية والألوهية فيه وحده لا شريك له، فهو عَزَّ وجل رب كل شيء ومالكه، وأنه لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى. بالتالي فإنه هو لا غيره صاحب الأسماء الحسنى والصفات العليا. وبَطُل شرك المشركين بالحقائق والبراهين الساطعة، التي بدأت بالخيرية ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هل الله تعالى الذي خلق فسوى، والذي أنعم بنعمه التي لا تعد، وإحسانه الذي لا يُحد خير وأبقى أم العاجزون الذين يعبدهم المشركون من دونه سبحانه وتعالى؟ سؤال يستثير العقول، ليردها إلى الحق، فالجواب من كل عاقل هو: ليس هناك أعظم وأخير من الله تعالى.

ثم انتقل البيان من الافتتاحية الكريمة إلى خلق السماوات والأرض، وإنزال المطر، وإنبات الأرض. ثم لفت انتباههم إلى آية استقرار الأرض، وجعلها قراراً وسكناً لهم، وما أودع فيها من الأنهار الجارية، وجعل الجبال فيها رواسي لها. وجعل بين البحرين حاجزاً، فلا يؤثر أحدهما في طعم ومذاق الآخر. ثم انتقل إلى حالات عجزهم، عندما يكنون في مواقف الاضطرار، فيلتجئون إلى ربهم عند الشدائد، ليكشف السوء عنهم، ثم تلت ذلك آية نعمة تعاقب الأجيال، فيخلف بعضهم بعضا. ثم آية هدايتهم بالنجوم حين يكونون في ظلمات البر والبحر. وآية إرسال الريح بشرى لهم بالمطر. ثم يتدرج البيان العظيم إلى إثبات الخلق والبعث والإنعام عليهم بكافة أنواع الرزق. فأعجزت تلك الحجج من الآيات والبراهين المشركين في أن ينكروها، وعن إثبات صدق حقيقة الشرك. وتميزت الحجج والبراهين بالتدرج في الانتقال، وحاصرتهم بالسؤال التقريري الذي تكرر خمس مرات ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ إذ ورد ذكره بعد كل مجموعة من الحجج. ثم ختمت كل مجموعة من الحجج بالكشف عن شيء من حقائقهم، كقوله تعالى ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ وقوله تعالى ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وقوله تعالى ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقوله تعالى تنزيهاً لذاته العظيمة عن شركهم ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وختامها قوله تعالى ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الذي يثبت عجزهم. فكان سياقاً عظيماً من كل وجه، فسبحان الله تعالى الذي أعجز عباده ببيانه وآياته في كتابه العظيم، القرآن الكريم.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ثم تنتقل آيات السورة الكريمة إلى الكشف عن حال أولئك المشركين، واقوالهم الباهتة عن كفرهم، وردودهم على رسولهم صلى الله عليه وسلم. وقد بدأ تبارك وتعالى ذلك بحصر وقصر علم الغيب الذي غَيَّبَه عن عباده له عَزَّ وجل فقط، فليس لأحد معرفة شيء من المغيبات حتى أجل الإنسان فإنه لا يعرفه عن نفسه. فقال تعالى ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ فقل يا أيها النبي عليه الصلاة والسلام لجميع الخلق: لا يعلم الغيب الذي غَيَّبَه اللهُ تعالى عن عباده في السماوات وفي

الأرض إلا هو عَزَّ وجل ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ وأفادت جملة ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ استثناء يفيد القصر والحصر لعلم الغيب على الله تعالى فقط، فَيُثبته له سبحانه وتعالى، وينفيه عن غيره من الخلق. فهو المنفرد بذلك وحده عَزَّ في علاه. وبالتالي كيف لكم ولمعبوداتكم من دون الله عَزَّ وجل أن تعرفوا شيئاً من الغيب الذي استأثر الله تعالى به لنفسه عن خلقه. فلا تعرفوا ولن تعرفوا ما استأثر الله تعالى به لنفسه من العلم، ومن ذلك الذي استأثر الله تعالى به لنفسه علم الساعة التي سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن وقتها. ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى في معنى الآية الكريمة: قل يا محمد لسائليك من المشركين عن الساعة متى هي قائمة؟ قل: لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب الذي استأثر الله بعلمه، وحجب عنه خلقه، إلا هو سبحانه وتعالى. والساعة من ذلك(١) فإن لله تعالى غيب السماوات والأرض.

ثم يؤكد الله سبحانه وتعالى انفراده بعلم الساعة بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ فما يشعر هؤلاء الكفار ولا غيرهم متى يكون بعثهم من قبورهم للحساب والجزاء. ومن عمق البيان ودقة معناه ومغزاه أن دلالة ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ تمثل وتُعبر عن أدق درجات العلم بها، فهم وغيرهم لن يحسوا بها إلا وقد قامت ووقعت، فلن يدركوا وقتها إلا وقد وقعت. خاصة وأن معنى كلمة ﴿ أَيَّانَ ﴾ تفيد الوقت واللحظة، فنفى أن يدركوا ويعرفوا الزمن والوقت المعبر عن لحظة وقوعها، مع نفي الإحساس بها في أدق الألفاظ المفصحة للحال، وهو الشعور الذي يفيد الإحساس والإدراك للشيء بعوامل الحواس. فهو بيان عظيم في حقيقته، وفي إعجازه من كل وجه.

ثم يخبر سبحانه وتعالى أن كفرهم أودى بهم إلى تجاهل أمر الآخرة وشأنها، فأصبحوا عنها غافلين ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ بل قَصُر واضمحل علمهم عن أحوال الآخرة مع وجودها وتوافرها، وذلك لكفرهم وإنكارهم للحياة الآخرة. فهم متجاهلون لها حتى يتحقق ويتكامل علمهم بها في الآخرة عند معاينتهم لها. ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها. وبمعنى: تساوى علمهم في ذلك. وقال قتادة: بجهلهم بربهم، يقول لم ينفذ لهم إلى الآخرة علم. هذا قول. وقال ابن عباس: بل أدرك علمهم في الآخرة حين لم ينفع العلم. وبه قال عطاء الخرساني، والسدي: أن علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك(٢) وهي تمثل أحوال الكفرة المنكرين ليوم القيامة.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٠٥/١٨)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٨٥/٣)

ثم يقرر الله تعالى ما هم عليه في الدنيا من العلم بالآخرة ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ فإن حقيقة معرفتهم عن الآخرة مبني على الشك والتردد. بل هم اليوم في الدنيا في حالة شك وريبة من الآخرة، ثم يؤكد سبحانه وتعالى ما هم عليه بما هو أعظم من الشك ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ فإن موقفهم وعلمهم بشأنها كالأعمى حين تكون الحقيقة ماثلة أمامه وهو لا يراها. مما يبين عمق كفرهم بالآخرة. بل هم عن الآخرة في حالة من العمى عنها، فموقفهم وعلمهم بشأنها كالذي فقد بصره حين تكون الحقيقة ماثلة أمامه وهو لا يراها بسبب فقدانه لبصره، وهؤلاء من الآخرة وشواهدها وأدلتها منصرفون عنها، وكأنهم لا يرونها أدلتها وشواهدها، ولا يستدلون بها على حقيقة الآخرة الواضحة الجلية.

فورد البيان عن كشف حقيقة إدراكهم للآخرة ببيان أوضح وصَوَّر حقيقتهم بأدق البيان وأوضحه، فقد ورد كشف البيان الكريم لحالهم بحرف ﴿ بَلِ ﴾ الذي تكرر ثلاث مرات، بما يفيد تخبطهم، بانتقالهم من شأن إلى شأن، ومن حال إلى حال آخر. فالأول: اضمحلال علمهم عن الآخرة حتى يصلوا ويَرِدُوا إليها، فيتكامل علمهم بها في الوقت والحين الذي لا ينفعهم ذلك العلم بها ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فقد اضمحل علمهم بأحوال الآخرة مع وجودها وتوافرها، وذلك لكفرهم وإنكارهم للحياة الآخرة. فيتكامل علمهم في الآخرة عند معاينتهم لها.

ثم نقلهم البيان الكريم لحالة أخرى من حالاتهم ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ بل غلب عليهم الشك، الذي أوردهم إلى عدم التصديق، وعدم العمل لها، وعدم اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم تم نقل صورة حالتهم إلى تعاميهم عنها، وعن شواهدها وأدلتها ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ فأصبح حالهم هو حال من عميت بصائرهم، فلا يرون الحجج والبراهين الدالة على الآخرة. وبالتالي عميت قلوبهم عنها تماماً، فحجبوا أنفسهم عن سماع الحق واتباعه. مما يفيد أن حقيقة الخلق والإنشاء والتدبير العظيم للكون، وكذلك شواهد تتابع فناء الأجيال، دلالة واضحة على أن هذا الخلق لا بد أن يُحاسب على أفعاله، فلن يكون هذا الخلق عبثاً. بل له غاية وهدف. فهناك خالق قد خلق، وألهم الإنسان فجوره وتقواه، وأرسل الرسل التي ترشد وتدل الناس على ما أراد الله تعالى منهم. وقد زودهم الله تعالى بالحجج والبراهين الساطعة. كما توضح هذه الآيات الكريمة نعمة الله تعالى على العباد بما أنزل وبين وأوضح، وبما أرسل من الرسل، وخاتمهم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، فالحمد والشكر له سبحانه وتعالى.

ثم يبين الله تعالى ما احتج به الكافرون المنكرون للآخرة ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ فقال الكافرون: أيعقل أننا إذا متنا، وأصبحنا تراباً نُخْرَج من الأرض مع آباءنا

السابقين. سؤال استبعاد، يستنكرون وينفون به إعادة الخلق مرة أخرى، متناسين مراحل الخلق التي مروا بها في بطون أمهاتهم، ثم بعد ولادتهم، ثم الموت. فالذي خلق الإنسان بهذه الحقائق العجيبة أيعجزه أن يعيده بعد فناء جسده؟ بل ما الذي كان في جسده؟ وما هي تلك القوة التي كانت مبعثاً للحياة فيه؟ فانتهى ومات بخروجها، فكانت حياته مشروطة ببقائها، أين ذهبت تلك الروح؟ ما هي تلك الروح؟ فإنكم تعيشون بها ولا تعرفون عنها شيئاً، وهي بداخل كل جسد منكم. هل لكم أن تأتوا بها مع جسد صاحبها؟ أليس هذا أمر عجيب ومُذْهِل؟ ألا يدل هذا على عظمة مَن خَلَقَ فسوى؟ فالذي خلق وأفني بهذه الدقة فإنه لا يعجزه إعادة ما خلق. فإين دليل التكذيب والنكران الذي يمكن له أن ينفي ذلك ويُبطله؟ فإن خالق الروح وحافظها هو من سيعيدها مرة أخرى. فإنكارهم للبعث، قادهم لإنكار الآخرة، وبالتالي قادهم إلى نكران الحساب والجزاء، وقادهم ذلك إلى نكران الجنة والنار. فسلسلة من المتعاقبات، بعضها مترتب على بعض. مما يدل على أن الاستنتاج الفاسد يترتب عليه درجات متعاقبة من الباطل والفساد.

ثم يخبر الله تعالى بقياساتهم الفاسدة، واستدلالاتهم الواهية، وافهامهم الساقطة التي ينكشف بها بطلانها. إذ يقيسون قولهم واستنتاجهم بنكران البعث على استبطائهم وعد الله تعالى بالبعث لمن تقدم من الأجيال السابقة لهم ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ هذا الإنكار مُسَوِّق للإنكار الذي قبله، وهو أنه لا يمكن، ويستحيل أن يكون هناك بعث بعد أن تتحول أجسادنا بعد الموت إلى تراب، وعظامنا نخرة، متآكلة، ومتباعدة عن بعضها البعض. كما أنه سبق وأن وُعِدْنَا وآباؤنا بهذا القول، فلم نر له حقيقة، فلا يعدوا أن يكون هذا إلا من الأقاويل الباطلة ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: لا يعدوا أن يكون هذا القول بالبعث إلا مما سطره الأولون في كتبهم من الأخبار والترهات التي لا صحة لها. لأن الأساطير تعني: الخرافات والروايات التي هدفها التسلية والتلهي ومضيعة الوقت، وليس لها حقيقة. وهذا قياس باطل، ولا حجة ولا برهان لهم فيه. فإن الله تعالى يجمع جميع الخلائق في بعث واحد يوم القيامة.

ثم يرد الله تعالى على قولهم بأن يتأملوا في آثار وأخبار المكذبين السابقين، وما حل بهم من العذاب الشديد. فوجَّه الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يُبَلِّغ ويُرشد المشركين الصادين عن الإسلام إلى السير في الأرض، ثم ينظروا فيما حل من العذاب بالكفرة من الأمم التي قبلهم ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ فبلغهم أن يضربوا في الأرض عموماً، ثم يتأملوا ويتفكروا فيما حصل من عذاب ودمار للأمم التي قبلهم، ممن كذبوا بِرُسُلهم، فحاق بهم العذاب، كعاد وثمود وقوم لوط، وفرعون وقومه. وفي هذا التوجيه الرباني ما يفيد: الإرشاد إلى السير نحو معالم الحق، والتفتيش والاستعلام عن الحوادث التي تؤكد الحق وتبينه، وأخذ العبرة والاسترشاد منها للخير والحق، كما يفيد لزوم السفر في طلب الحق واستعلامه، والاتعاظ بالغير، كما يفيد حرف الفاء في قوله تعالى ﴿ فَٱنظُرُواْ ﴾ الترتيب بين أمر السفر،

وبين الإفادة منه، وذلك بأخذ الدروس التي تبين الحق، والانتفاع بالسفر، وذلك بالربط فيه بين مصلحة الدنيا، ومصلحة الآخرة التي تنجي من عذاب الله تعالى، وتحقق رضاه والجنة. فيا أيها النبي أخبر هؤلاء المكذبين بأن يضربوا في الأرض، وأن يتأملوا أخبار الأمم التي كذبت الرسل، وكيف عاقبهم الله تعالى على كفرهم، فهل تريدون أن يحصل لكم مثل ما حصل لهم؟ أم تريدون أن تتعظوا بهم، وبما حصل لهم من العقاب؟ أم أنكم مصرون على استكباركم وغيكم؟

وسَمَّى الله تعالى المطلوب منهم هو النظر في عاقبتهم، مما حل بهم من العذاب ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ فهو توجيه لإظهار بشاعة حالهم، بما ارتكبوا من الإجرام في حق رسولهم، وفي حق الرسالة والحجج والبراهين، وفي حق ما يجب عليهم من طاعة ربهم، والامتثال لما جاءهم من الحق. فهو الذي أنعم عليهم وعلى جميع الخلق بنعمه الظاهرة والباطنة. فلا تكونوا مثلهم مجرمين.

وجملة ﴿ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ ﴾ تفيد التوجيه لهم بالتأمل الذي يحمل التفكر، فكلمة ﴿ فَٱنظُرُواْ ﴾ تفيد الأمر، وتفيد استخدام نظر العين، ونظر التأمل والتَّبَصُّر، وكلمة ﴿ كَيْفَ ﴾ تؤكد وتبين علة النظر من العبرة والمآل، وتقليب الفكر في حالهم ومآلهم، فهو استفهام يفيد الاعتبار، عن كيف سيكون حالكم أيها المكذبون المشركون من بعد ما عرفتم بالذي حل بأولئك الذين تشابهتم معهم في التكذيب والإنكار؟ فكيف تصنعون؟ فهو استفهام توقف، وتدبر، وتأمل لموقف سيمرون به إن لم يتعظوا. وفي هذا استثارة للذهن بالتفكر في تبعات المآل، والتفكر في النتيجة، والتأمل فيما سيكون حال وقوع مصيبة بهم، فأولى لهم أخذ العبرة من غيرهم، ففي ذلك استحثاث بأن يتصوروا موقفهم وحالهم قبل أن يكونوا مثلهم، مما يفيد أهمية التفكير في الحوادث وأخذ العبرة منها، وكذلك تقليب أوجه الأمر، قبل الدخول فيه، وأن منهج القرآن الكريم في أساليبه قائم على التدبر والتفكر، إذ يُوجِّه الْمُخَاطَب توجيهاً تأملياً، وتوجيهاً تدبرياً، بما يرفع من مستواه الفكري نحو التعقل، واستبصار طريق الحق بوضوح، للأخذ به والنجاة من خلاله.

ومن جميل أساليب استحثاث العقل للتفكر في قوله تعالى ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أنه لم يبين أو يذكر سبحانه وتعالى نوع العقاب، ليكون وقعه النفسي أعظم، ومجال التفكر فيه أوسع، وليفيد التهويل والتعظيم له، وكذلك لعلة تعدد أنواع عذاب أولئك الكافرين كما قال تعالى في سورة العنكبوت ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ

ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾

ثم يلتفت الخطاب إلى خاصة النبي صلى الله عليه وسلم، لمعالجة ما يعانيه من قومه، مع شدة حرصه على نجاتهم. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ ينهى الله تبارك وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام عن الحزن عليهم ﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ فلا تحزن على المعرضين عن الإسلام، الذين يعادونك بأقوالهم وأفعالهم. مما يفيد أنه عليه الصلاة والسلام كان حريصاً على إسلامهم، وإسلام كُلَّ من يدعوه، وذلك لمحبته الخير للناس جميعاً، وتكدره وأسفه على من لا يستجيب لدعوته، ليخرجهم من الكفر إلى الإسلام، ومن الظلمات إلى النور، ومن الباطل إلى الحق.

والحزن هو ما يحصل في النفس نتيجة وقوع ما تكرهه، أو فوات محبوب لم تُحَصّله، وكلاهما متعلق بشيء قد حدث وصار. مما يفيد ألا تُشغل نفسك وبالك بما مضى ويمضي ويحدث مما تحب أن يكون، أو لا تحب أن يكون. لأن علم الله تعالى سابق لما سيكون قبل أن يكون، كما قال تعالى في سورة النحل، والنجم، والقلم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ فيقرر سبحانه وتعالى أنه سبق علمه بمن سيضل عن سبيله، ومن سيهتدي، فَعَلِمِ الشقي منهم والسعيد، فعليك أيها النبي بدعوتهم إلى سبيل الله تعالى، وإقامة الحجة على من تدعوهم، وبالتالي فلا تحزن على ما يفوت مما تحب لهم من الإسلام. مما يُعَلِّم المسلم ألا يُشغل باله ونفسه بما يحدث من امتناع ما يعارض رغباته من الخير، وسواء كان ذلك في مجال دعوته الناس للصلاح، وللإسلام، أو ما يرغب تحقيقه لنفسه فيفوت عليه تحصيله، فإن الله تعالى يعلم ما لا يعلمه الإنسان، مما يَصلُح وما لا يَصلُح، ومن يؤمن ومن لا يؤمن، وفيما هو الخير. وهذا علاج للحزن والْهَم في حياة المؤمن. مما يُوجب التوكل على الله تعالى، والتسليم له في القضاء والقدر بعد بذل الأسباب.

ثم يوجه اللهُ تبارك وتعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى عدم التكدر مما يمكر به الأعداء له عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ فلا تكن في ضيق من مكر أعدائك لك، فيتكدر به صفاء نفسك وانشراحها. فالضيق هو الحالة التي تقع في النفس عندما تواجه المصاعب والمكدرات، وهو عكس الانشراح، لأن كلمة الضيق تعطي الدلالة العكسية للسعة، وبالتالي تؤثر على حال الإنسان بما تضيق به رحابة النفس وسعتها، ثم بما تُوجِدُه من الهم والحزن. وفي هذا البيان دلالة على قوة مكرهم وخداعهم واحتيالهم، وأنه مستمر غير منقطع، فقد ورد فعل المكر بصيغة الفعل المضارع ﴿ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ والذي يفيد الاستمرار في المكر وعدم الانقطاع والتوقف.

والمكر بالخداع هو: أن يُظهر المخادع خلاف ما يُبطن، ويُبطن خلاف ما يُظهر، بقصد الخديعة، من أجل إيصال المكروه لغيره وهو لا يشعر به، وهو وصف يدل على عظمة ما كان يجده صلى الله عليه وسلم من قومه، حتى يصل إلى ضيق الصدر. ولكن معية الله تعالى تتجاوز به صلى الله عليه وسلم تلك المصاعب. وفي هذا بيان على أهمية الأخذ بالأسباب، والاستعانة بالله تعالى، فبالرغم من معية الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم إلا أنه يأمره عَزَّ وجل بالأخذ بالأسباب، ليتحامل على نفسه بمدافعة ما يضيق به الصدر، ليعطي بذلك درساً في أهمية الأخذ بالأسباب، مع التوكل على الله تعالى وسؤاله أن يمنحه ما يتقوى به على ما هو فيه من حال.

ومن دقائق البيان في قوله تعالى ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أنها أفادت استمرارية الضيق وتجدده في الحياة، فَتُوجِّه الآية الكريمة بمدافعة الضيق، وعدم الاستسلام له. ليكون ذلك منهج حياة، يتعلم منه المسلم أن يجتهد في مدافعة ما يضيق به صدره بالدعاء والركون إلى الله تعالى، مع مدافعة ما يكره بالأسباب المانعة، والأسباب المزيلة له، ومنها النظر إلى ما ينشرح به الصدر، وإلى النعم التي لا تُعد ولا تُحصى. وأن يربط المؤمن أموره وأهدافه وحاجاته ودفع ما يكره بالأمل في الله تعالى وأقداره عَزَّ وجل من الخير.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى
تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ
مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ
ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن
ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

ثم يخبر الله تعالى بتمادي المشركين في الكفر والطغيان، إلى درجة الاستهزاء بيوم القيامة، ذلك اليوم الذي يُحشر فيه الناسُ لرب العالمين، فيخبر الله تبارك وتعالى بقولهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيقول الكفرة استهزاءً وتهكماً وتمادياً في طغيانهم: متى يكون هذا الموعد الذي يُبعث الناس فيه من قبورهم، ويحاسبون ويجزون على أعمالهم بعد هذا التطاول الزمني بين الأجيال، وهذا التفرق في المكان

والأزمان؟ متى هو؟ متى يقع؟ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ متى يكون إن كنتم صادقين فيما تقولون؟ فكأن الصدق مقرون بتعيين وتحديد ذلك اليوم. وكأنهم يريدون أن يروه؛ تمادياً في التهكم والطغيان. وهذا عناد وتهكم منهم. فإنما العلم عند الله تعالى، وليس عند عباده. فهو سؤال استنكار وتكذيب منهم بالحق.

وأورد الله تعالى سؤالهم بصيغة الجمع ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بما يفيد أنهم كانوا يخاطبون به النبي صلى الله عليه وسلم وكل من يجدون ويقابلون من المؤمنين.

وليس هناك تلازم وترابط بين صدق اخبار الله تعالى بيوم القيامة وبين الإخبار بوقته وزمانه. فلا يلزم من الإخبار به أن يعين موعده لعباده، بما يفيد أنهم يقولون: أننا لا نراه ولا نشعر بوجوده. وحتى لو أن الله تعالى أخبر به، وأُعلِمُوا به، لقالوا تمادياً في الباطل: أثبتوه لنا برؤية ما لم يقع قبل أن يقع حتى نصدقكم. فسؤالهم هو سؤال استبعاد وتنطع وتجاهل واستهزاء. ومع كل هذا يحلم الله تعالى عليهم، ولم يعاجلهم بالعقاب. كما يدل ذلك على حلمه صلى الله عليه وسلم عليهم، وأنه واجه في دعوته تمرداً وعتواً من المكذبين، والمستهزئين، والمتنطعين، ولكنه يعاملهم بحكمة النبوة، بما يعطي الدعاة إلى لخير المنهج النبوي الكريم الذي يتطلب أن يسلكه الداعية إلى دين الله تعالى، والداعية والناصح والموجه إلى كل خير.

فَيَرد الله تعالى عليهم، بما أَمَرَ به رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قل يا أيها الرسول لهؤلاء الذين يسألون عن يوم البعث، استهزاء وسخرية ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ عسى أن يكون ذلك الذي تستعجلون وقوعه قد اقترب لكم، ودنا منكم، وأزف، وتابعكم متابعة الرديف لرديفه على الدابة، وراء أظهركم ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وهو العذاب. وذكر سبحانه وتعالى بأنه إذا جاءكم فهو بعض العذاب وليس كله ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وكَنَّا عنه بالاستعجال، لأنهم ينكرونه، ويسألون عنه، فسؤالهم هو سؤال من يريد رؤيته على سبيل التكذيب، والبرهان بأنه من باب الاستبعاد له من أن يكون. وهو بيان بأنه إذا جاءهم العذاب سيكون عذاباً شديداً، ومع شدته فهو بعضه وليس كله. وفي هذا تهويل وإنذار.

وتحمل كلمة ﴿رَدِفَ﴾ الملاصقة لهم من الخلف، بما يفيد عساه قد اقترب منكم حتى أصبح مثل الرديف لكم، وراء أظهركم، مشابهة للرديف الذي يركب خلف قائد الدابة على ظهرها، ليفيد القرب لدرجة الالتصاق بكم. وكذلك هو مِثْلُ الرديف الذي يمشي ويسير في أثر غيره، وهو الإتباع بقرب. وهو ما حل بهم يوم بدر من القتل والأسر، والمهانة التي أذلت الأحياء. وعذاب القتل لمن مات. وهذا من دقائق البيان في تصوير حقيقة الشيء وكأنه ماثل أمامك فتراه وتشعر به.

ثم يخبر الله تعالى بعظيم فضله على الناس، بجميع أنواع الإنعام، ومنها التسخير والرزق، وإرسال الرسل، وعدم المعاجلة لمن استحق العذاب، فيخاطب سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك الإنعام والإكرام للناس ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فإن ربك يا أيها الرسول ﴿ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ بما أغدق عليهم بالأرزاق من غير سؤال منهم، وسخر لهم الدواب والأنعام، وسخر لهم ما لا يحصى من الإنعام والفضل، وأرسل المرسلين، وأنزل الكتب، وكذلك من فضله على الناس أنه لا يستعجل لهم العقوبة، فيمهلهم، لعلهم يرجعون للحق، ويتوبون ويستغفرون، وإلا كيف سيكون حالهم لو أن الله تعالى عجل لهم العقوبة بمجرد فعل الذنب، ولكن رحمة الله تعالى وحلمه عظيم. وإن هذا ليستحق الشكر من الناس لربهم وخالقهم ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فأكثر الناس لا يشكرون الله تعالى على ذلك، وكان الأولى بهم الاستجابة لله تعالى. مما يفيد أهمية الشكر، وكثرة الحمد لله تعالى.

والمتأمل يجد أن فضل الله تعالى عظيم على الناس جميعاً، بدفع المكروه، وجلب المرغوب من الخير. ولو تأمل المسلم في مسيرة حياته، لوجد أن الله تعالى قد صرف عنه كثيراً مما يكره، من غير أن يتخذ سبباً لجهله بما هو واقع به، أو بما سيقع له، أو للمفاجأة به، أو لعلمه بعد زواله من غير أن يشعر به. وكم من مصيبة تجاوزت صاحبها أو تجاوزها دون أن يشعر بمرورها به، أو يمر هو بها، وهو في غفلة عنها. وكم خالط أو خالطه من عليلٍ ومُعْدٍ بعلته وهو لا يعلم، ولم يُصِبْهُ من ذلك شيءٌ، وكم سقط أمامه أو بعده شيء قاتل أو مؤذٍ، فأنجاه الله تعالى من غير احترازٍ منه، ولو تقدم أو تأخر طرفة عين لأصابه ذلك الهالك. مما يوجب الشكر والثناء لله تعالى، ولكن غفلة العبد عن الشكر كثيرة، كما قال تعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ مما يفيد أن القليل هم الشاكرون لربهم. وهذا يدفع المؤمن للعناية بشكر الله تعالى، والثناء على ما يعلم من النِّعَم، وعلى ما لا يعلم مما خفي عليه من النِّعَم الظاهرة والباطنة.

ويخبر الله تعالى عن كمال علمه وشموليته، بحيث لا يخفى عليه ما يبطنه الإنسان من الأفكار والنوايا، وما يُظهره من الأقوال والأعمال، فَوَجَّه سبحانه وتعالى بيان ذلك بالخطاب البياني إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، لإعلام الناس بذلك ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فإن ربك أيها النبي يعلم ما تنطوي عليه صدورهم، وما تخفيه من النوايا والسرائر، وما يعتلج في الضمائر، وما يفكرون فيه قبل أن يُظهروه ويعلنوه لغيرهم، ويعلم كذلك ما يكون مما يعلنونه ويظهرونه. بما يفيد لا تبتئس بما يحيكونه لك الأعداء، فإن الله تعالى يعلمهم، ويجعل كيدهم عليهم وبالاً. ومن دقة السياق لبيان عظيم غور علم الله تعالى وكمال إحاطته أن جعل وصول علمه عَزَّ وجل إلى أقصى مساكن التفكير، ومواقع الإخفاء في النفس البشرية، وذلك بكلمة ﴿ مَا تُكِنُّ ﴾ وذلك بإيقاع علمه عَزَّ وجل على عملية الاكنان ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ ﴾ والحاوي لهذا

الاكنان هي الصدور ﴿ تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ فتتكتم صدورهم على ما أخفت، حتى أن اللسان لم يتفوه به. فعلم الله تعالى به. مما يبين عمق دلالة اللفظة في التعبير عن عمق علم الله تعالى، الذي يصل إلى ما تسره وتتخفى به الصدور. والاكنان هو: الحفظ مع الستر والتستر على ما اكتن به الإنسان ولم ينطق به ويظهره. ومن ذلك اتخاذ الجبال أكنانا، أي ستراً. وورد في لسان العرب لابن منظور رحمه الله تعالى: أن الكن والكنَّة: وقاء كل شيء وستره. والكن: البيت أيضاً. وكَنَّ أمره: أخفاه[1] وجعل البيان الكريم الصدر هو المسكن لما أخفاه هذا الإنسان ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ فالصدر خفاء، والاكنان خفاء في داخل المخفي الذي هو الصدر. وذلك لشدة التخفي والتحرز من ظهور ما أُكن وأخفى، فجعل الكن له هو الصدر. وفي هذا بيان لعظيم علم الله عَزَّ في علاه. كما أن هذا من عظيم بلاغة البيان في تحرير المراد بأبلغ الوصف وأدقه وأكمله، وهذا إعجاز في إن يأتي أحد بمثل دقته في المعنى، وفي قوة السياق والإيضاح الكامل للشيء كما هو.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى قوة علمه وسعته، بأن كل ما يغيب في السماء والأرض مسجل عنده في كتاب قبل أن يكون ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ وما من شيء غائب عن علم الإنسان في السماوات والأرض إلا وهو عند الله تعالى في كتاب، وصفته أنه ﴿ مُّبِينٍ ﴾ واضح، فإنه يوضح ويبين لمن نظر فيه جميع ما هو كائن، وما سيكون قبل أن يكون ﴿ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ وهو أم الكتاب الذي أثبت الله تعالى فيه كل ما هو كائن منذ بدأ الخلق إلى يوم القيامة. فما من شيء في السماء والأرض سواء كان سراً أو علانية إلا يعلمه الله تعالى، وأثبته في الكتاب المبين. وسماه مبين، لقوة بيانه، ووضوح ما فيه بالوفاء والكمال، من غير نقص ولا زيادة فيه. قال المفسرون: ما من شيء غائب، وأمر يَغِيبُ عن الخلق في السماء والأرض إلا في كتاب مبين، إلا هو مُبَيَّن في اللوح المحفوظ[2] وجملة ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ هو حصر قيد وإثبات لكل شيء في اللوح المحفوظ. فقصر سبحانه وتعالى العلم بكل شيء له وحده في كتاب واضح مبين، وموضح لكل ما كان، وما هو كائن، وما سيكون. وبالتالي لم يغب عن علم الله تعالى شيء أبداً. فهو محيط بكل شيء علماً وقدرة.

ثم يخبر الله تعالى بكمال القرآن وعظمته، وبراهينه إلى درجة أنه يوضح ويبين لبني إسرائيل أكثر الذي يختلفون فيه من الحقائق ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

---

(1) ابن منظور، لسن العرب (٣٦٠/١٣)

(2) الشوكاني، فتح القدير (١٥٠/٤)

إن هذا القرآن الذي أنزلته عليك أيها النبي والرسول يوضح ويبين لبني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون. ومن دقائق القرآن الكريم توضيح المقصد بكلمة ﴿يَقُصُّ﴾ لما في معناها من البيان عن معرفة حقيقة اختلاف بني إسرائيل بدقة عميقة، وبيان الصواب والحق في ذلك الاختلاف. فكلمة ﴿يَقُصُّ﴾ تحمل معنى دقة التتبع المعرفي الذي يكشف حقيقة الاختلاف بدقة كما هو عليه. لأن معنى القصص: هو تتبع الأثر. قال ابن منظور رحمه الله تعالى: قصصت الشيء: إذا تتبعت أثره شيئاً بعد شيء. ومنه قوله تعالى في سورة القصص ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ أي: اتبعي أثره[1] وبني إسرائيل هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: لأن أهل الكتاب تفرقوا وتحزبوا أحزاباً، يطعن بعضهم على بعض، ويتبرأ بعضهم من بعض، فنزل القرآن مبيناً لما اختلفوا فيه من الحق[2]

ومن دقائق السياق أن وردت جملة الاختلاف بصيغة المضارع ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فكلمة ﴿يَخْتَلِفُونَ ﴾ فعل مضارع مستمر، فيفيد استمرارهم في الاختلاف منذ أن نشأ. وهم كذلك، كما أخبر القرآن العظيم بذلك. فمن اختلافهم أن اليهود طعنوا في عيسى ابن مريم، والنصارى بالغوا، فقالوا فيه: أنه ابن الله، فأوضح القرآن الكريم ذلك بالحق المبين في عيسى، وفي غيره مما اختلفوا فيه.

وفي هذا الإثبات من البيان لبني إسرائيل أكثر الذي يختلفون فيه، دليل إعجاز، وآية وحجة عظيمة عليهم، بأن هذا القرآن كلام الله تعالى، وبأن عليهم الإيمان به؛ وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والامتثال لما جاء فيه عن الله تعالى، وأيضاً حجة وآية باهرة لكل أحد من الناس، بأن هذا القرآن هو كتاب من عند الله تعالى، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. إذ لم يكن لمحمد عليه الصلاة والسلام العلم والمعرفة بدقائق ما اختلف فيه بنو إسرائيل. كما يدل على هيمنة القرآن الكريم على ما سبقه من الكتب.

ثم يُخبر الحق تبارك وتعالى بصفة عظيمة أخرى للقرآن العظيم، تثبت وتدل على أنه كتاب أُنزِل من عند الله جَلَّ في علاه ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإن من صفات هذا القرآن العظيم ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى ﴾ أي: هداية لقلوب المؤمنين نحو الحق الذي يصلون به إلى الفوز برضا الله تعالى عنهم، وتحصيل ما أعده للمؤمنين في الآخرة. وكذلك هو رحمة لهم ﴿وَرَحْمَةٌ ﴾ أي: هو رحمة لمن صَدَّقَ به، ففازوا بما يحققه لهم

(١) ابن منظور، لسن العرب (٧٤/٧)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (١٥٠/٤)

من محبة الله تعالى لهم، وعنايته وتوفيقه لهم، وفوزهم بالجنة في الآخرة. وخص هاتين المنفعتين بالمؤمنين ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم هم المنتفعون به، لما آمنوا وصدقوا. وقد أكد البيان تحقق ذلك بحرف التأكيد **(إن)** ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ليفيد بأن تحقق ذلك للمؤمنين عين التحقق وكماله، فإنه متحقق تحققاً لا ريب ولا شك فيه.

وينتقل البيان من الله تعالى إلى إيضاح الفصل بين المتنازعين في دينه، فخص ذلك الحكم بأنه له وحده يوم القيامة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إن ربك يا أيها الرسول ﴿يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ أي: بين المختلفين في دينه من بني إسرائيل، وسيكون القضاء بينهم ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ بحكمه العادل، الذي ينتفي منه الظلم والمحاباة. والمقصور على العدل فقط. فدلالات ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ تبين الفصل الحق، وتبين العدل المبني على معرفته الدقيقة والشاملة بذلك الاختلاف، فلا يغيب عنه شيء أبداً سبحانه وتعالى، فيشمل الحكم في بني إسرائيل وفي غيرهم ممن اختلفوا في دينه عَزَّ وجل.

ثم يؤكد ذلك بإظهار وبيان صفتين عظيمتين له عَزَّ وجل ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فهو الذي له كمال الغلبة والرفعة والقهر والشدة، فلا قوة ولا شدة تقف أمام عزته عَزَّ وجل، وهو المنيع الذي لا يُرَد له أمر. وهو الذي قهر الخلائق، وعنت الوجوه له جَلَّ في علاه. وهو ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بكل شيء في الوجود، ولا يلتبس عليه حق بباطل. وقد ورد ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ وكذلك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بصيغة المبالغة التي تعني امتداد المعنى إلى أقصى كماله وتمام غايته.

ثم يُوجِّهُ الله تبارك وتعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى التوكل عليه سبحانه وتعالى، مبيناً وموثقاً لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه على الحق الواضح المبين ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ فيا أيها النبي فوض إلى الله أمورك، فهو كافيك فيها. وفي هذا تعزيز وتقوية للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الله كافيه ما أهمه، وناصره على من عاداه، فاستمر في دعوتك ورسالتك كما أنت. ثم يقرر الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بأنه على الحق ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ فإنك أيها النبي على الحق الواضح الظاهر، وإن خالفك المكذبون. وفي هذا تزكية للرسول صلى الله عليه وسلم، وللمنهج الذي هو سائر عليه، وأنه لم يخالف في شيء، وأنه يعمل بما أمره الله تعالى به. وطالما أنك على الحق فإن الله تعالى ناصرك، ومؤيدك، وموفقك.

وجملة ﴿ عَلَى ٱلْحَقِّ ﴾ ينتفي بها كل باطل عن مسلكه صلى الله عليه وسلم وعن دينه ورسالته، ويزداد البيان تأكيداً بوصف الحق أنه مبين ﴿ ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ والمبين هو الظاهر من بين ما عداه، وهو الحق المتصف بالبروز والعلو والوضوح في شريعته، وأحكامه، وآدابه، ومنهجه، وأهدافه وغايته، وأنه يتوافق مع الفطرة السوية. ولا غموض ولا شك ولا ريب فيه. فهذه معززات للنبي صلى الله عليه وسلم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وقد وقعت جملة ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ موقعاً لم يخاطب الله تعالى به أحداً من رسله بمثله. فكان ذلك شهادة لرسوله بالعظمة الكاملة، المنزهة عن كل نقص، لما دل عليه حرف ﴿ عَلَى ﴾ من التمكن، وما دل عليه اسم ﴿ ٱلْحَقِّ ﴾ من معنى جامع لحقائق الأشياء، وما دل عليه وصف ﴿ ٱلْمُبِينِ ﴾ من الوضوح والنهوض[1] مما يفيد قوة التزام النبي صلى الله عليه وسلم بأداء ما كلفه الله تعالى به على أكمل وجه. وفي هذا تزكية لدين الله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ومبشراً له ولدينه ولأصحابه ولأهل الإيمان بالنصر. كما يفيد ذلك أن لزوم هذا الدين هو لزوم للحق، وأن الله تعالى ناصر من توكل عليه، ولزم دينه.

ثم يبين الله تعالى مسلك الناس المعاندين المكابرين، وقوة عنادهم وامتناعهم عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم. وبأنه مهما عملت واتخذت من أساليب فإنه غير مجدي البتة معهم ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ فإن بعض من تدعوهم كالموتى حيال ما تدعوهم إليه ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ فكما أنك لن تتمكن من إسماع الموتى ما تُريد إسماعهم فإن حال بعض الناس كذلك مثلهم. وفي هذا تشخيص لأحوال بعض الناس عند مخاطبتهم ودعوتهم للحق، فيأخذهم الاستعلاء والكبر إلى درجة أنهم عن سماع الحق كالموتى.

ثم يصفهم سبحانه وتعالى بوصف آخر ﴿ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ وكما أنك لا تستطيع إسماع الحق للأصم، فإن حال بعض من تدعوهم إلى الهدى كمثل حال الأصم في إدباره، فجمع بين الصمم وبين الإدبار تجاه ما تدعوهم إليه من الحق المبين الذي أنت عليه، بما يفيد أنه لن ينتفع منك من مات قلبه عن سماع الحق، كما أنه لن يستفيد منك من أغلق أذنيه عن سماع الحق. لأنهم إذا سمعوه ﴿ وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ كراهية للحق، ومحبة للباطل. والمولي هو الراحل عنك، والمدبر هو من يعطيك ظهره، فيكون حالهم عند سماع الحق هو الرحيل عنك وعن كلامك ودعوتك لهم، وقد أعطوك ظهورهم، وهو كناية عن قوة

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير (٥١٤/٨)

الرفض، والاستخفاف بالحق، والكراهية له، فلا يستطيعون سماعه من قوة الباطل الذي في قلوبهم. وفي هذا تشخيص لأحوال بعض الناس تجاه المواعظ والنصح. فبمثل هؤلاء لا تُشغل نفسك بهم عن غيرهم ممن للحق قبول في نفوسهم. فهناك من يريده، فعليك بهم. وهذا درس لكل داعية إلى الخير والصلاح.

ثم يؤكد ويبين سبحانه وتعالى بمثل آخر صورة وهيئة الممتنعين عن قبول الحق، وهم المتعامين عن كل ما تبذله من جهد وحرص ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ فما أنت أيها النبي بمرشد من أعمى وطمس قلبه عن الحق وقبوله، نتيجة لِمَا هو عليه من الضلالة، وهم أولئك المتمسكون والمتشبثون بالباطل. فلا يريدون رؤية الحق. وبمعنى: ما أنت بقادر على أن تصرف من عَمِي عن الحق، فتقوده عما هو فيه من الضلالة إلى النور المبين. فكما أنك لا تستطيع أن تُري مشاهد الحق للأعمى لينظره بعينه، فإن حال بعض من تدعوهم إلى الهدى كمثل حال الأعمى الذي انطمست عينه عن مشاهدة الحق، ففقد بعماه رؤية ما أمامه من مشاهد الحق. الذي تدعوهم إليه من الهدى الواضح المبين، الذي أنت عليه مقيم في دعوتك ونهجك كله. مما يفيد أن كل إنسان مسؤول عن نفسه، وعن اختياره للحق أو الباطل. كما أوضح الله تعالى ذلك في كتابه القرآن العظيم. فقد أَلْهَمَ سبحانه وتعالى كل نفس فجورها وتقواها، كما قال عَزَّ وجل في سورة الشمس ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ ثم يأتي التذكير بالحق من خلال الكتب التي يحملها الرسُل، ثم لكل عبد مشيئته في أن يستقيم أو لا يستقيم. كما قال تعالى في سورة التكوير ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ومشيئة كل أحد تحت مشيئة الله عَزَّ وجل، ليست منعزلة عن مشيئة ربها وخالقها، كما قال تعالى في سورة التكوير ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ مما يفيد أن كفر الكافر ليس هو خارج عن مشيئة الله تعالى وسلطانه وقهره، فلو شاء لألزمه. ولكن حتى تحاسب كل نفس بما كسبت. إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم يثبت الله سبحانه وتعالى أن استماع الحق وقبوله خاص بنوع واحد من البشر، فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ هذا النوع هو الذي يُمكن أن تُسمِعُهُ الحق فيقبله هو ﴿ مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ هو الذي إذا سمع آيات الله تعالى يصدقها، لأنه يُذعن للحق، ويحب الحق، ويقدمه على باطله وعلى جمله، فصفتهم ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ يستسلمون للحق، وينقادون له، لا يأخذهم الكبر والتعالي عن الحق أبداً. وهذا تشخيص لحقائق الناس ومعادنهم ونفوسهم. مما يفيد أن القلوب المتواضعة للحق تقبله، وتؤمن به وتصدقه، فلا منازعة للحق في قلوبهم، وأما المتكبر المتعالي فهم عنه يصدون. فمنهم من قلبه كالميت تماماً تجاه الحق، فكما أن الميت لا إحساس له، فكذلك هذا النوع لا إحساس

له تجاه قبول الحق، ونوع كالأصم، يُغلق أذنيه عن الحق لمحبته الباطل. ومِثْلُهُ الأعمى، الذي يصد عن رؤية الحق حتى لا يتأثر بما يراه. فنسأل الله تعالى التواضع للحق بفضله وكرمه وتوفيقه، وأن يجعلنا أحضاناً للحق، ودعاة إليه.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان أحوال الساعة، وأحوال المكذبين بها. ويتصدرها بيان خروج الدابة، وهي تكلم الكفرة بأن أكثر الناس لا يوقنون. قال تعالى ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ فإذا حق ووجب وقضى الله تعالى حكمه بما قضى من العذاب عند فساد الناس، أخرج الله تعالى للناس دابة تكلمهم. وفي معنى ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ ثلاث دلالات: أحدها: العذاب. قاله ابن عباس. والثاني: الغضب. قاله قتادة. والثالث: الحُجَّة. قاله ابن قتيبة(١) ولا يمنع اجتماعها معاً، غضب الله تعالى من تردي العباد في الكفر، وظهور الفساد بين الناس، ونزول العذاب بهم، وقيام الحجة عليهم بما كانوا يكذبون. وهي خروج الدابة التي تكلمهم.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله تعالى، وتبديلهم الدين الحق، يُخرج الله تعالى لهم دابة من الأرض. قيل: من مكة، وقيل من غيرها(٢) وخروجها هو من علامات الساعة الكبرى. وقد جعل الله تعالى هذه الدابة تتكلم كما يتكلم الإنسان ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ فتخبر الناس بواقعهم المشين والمرير، وهو أن الناس الكفرة، مكذبون

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧٩/٦-٨٠)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٨٦/٣)

بحجج الله تعالى وبدينه، فلا يُصدقون بالقرآن، ولا برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، فهم لا يوقنون، فنفى اليقين عنهم الذي هو التصديق بالحجج، أي: حجج دينه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فكذبوا بذلك، فانتفى اليقين منهم ﴿كَانُوٓاْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ لا يصدقون. ومنها عدم التصديق بخروج الدابة، لتكون آية عظيمة على صدق ما أخبر به كتاب ربنا تبارك وتعالى، وأخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أنه الوقت الذي لا ينفع فيه الإيمان لمن لم يكن مؤمناً من قبل، فلا ينفعه التصديق اليوم، لأن ذلك من مقدمات الساعة الكبرى التي بينها الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. وفي هذا الإخبار وعظ وإنذار للناس بما سيقع، حتى يتأهبوا بالطاعة والامتثال لله تعالى. وليكون حجة على من كفر.

ثم يخبر تبارك وتعالى بيوم الحشر، وحال المكذبين به ﴿ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴾ فاذكر أيها الإنسان ذلك اليوم الذي سيكون، حين نحشرهم ﴿ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ ﴾ من كل قوم وجماعة ﴿ فَوۡجٗا ﴾ جماعة منهم، وزمرة زمرة ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ ممن يكذب ولا يُصدِّقُ بحجج الله تعالى، وأدلته وبراهينه، وأبلغها القرآن العظيم ﴿ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴾ يُدفعُون ويُسَاقُون إلى موقع وموضع الحساب، فَيُرَدُّ أولهم على آخرهم، قال الطبري رحمه الله تعالى: يُحبس أولهم على آخرهم، ليجتمع جميعهم، ثم يُساقون إلى النار[١] فيكون الحشر زمراً زمرا للمكذبين، من كل أمة من الأمم المتعاقبة، فَيُدفَعُون ويُساقُون إلى موقع الحساب. ويفيد الحشر للكافرين أفواجاً أنهم أصناف، فهناك الزعماء، والقادة، والساعون لتكثير المكذبين، وغيرهم كثير، فيعلم الله تعالى كل فوج وما يستحق.

ثم يخبر الله تعالى بما يكون من أمرهم بعد حشرهم أفواجاً ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَـٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ حتى إذا وصلوا وحضروا الموقف للحساب ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو ﴾ فجاؤوا إلى الموقف يخاطبهم الله تعالى ﴿ قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَـٰتِي ﴾ سؤال تقريع وعتاب، وتذكير وتهويل وتهديد من الله تعالى لهم. أكذبتم بآياتي من الحجج والبراهين الدالة على صدق المرسلين، وعلى وحدانية ربكم، وباليوم الآخر، وما فيه من الحساب والعذاب. أكذبتم بتلك الحجج الساطعة التي لا يكذب بها إلا متهاون، ومتكبر، ولاهي بلهوه، وغير مبالي. ثم تزداد الحجة بالمزيد من التقريع الذي يكشف حالهم مع آيات الله تعالى حينما كانوا في دار الدنيا ﴿ وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا ﴾ فأنكرتموها من دون اهتمام وعناية بها. فأنكرتموها وأنتم لم تهتموا بمعرفتها وفهمها، فليس إنكاركم عن إحاطة وعلم بها، بل لمجرد الاستهواء، فكذبتم بها وأنتم معرضون عنها، فلم تحيطوا بها

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/١٢٨-١٢٩)

علماً. ثم يزداد التقريع عليهم بسؤال استنكار وتوبيخ لما كانوا عليه من الفجور ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ماذا كنتم ذلك الوقت تعملون حين كذبتم بها؟ فطالما أنكم كذبتم بآياتي من الحجج، وأنتم لم تعرفوها، وكذبتم بها وأنتم لم تحيطوا بها علماً، فإذاً ماذا كنتم ذلك الوقت تعملون. ليذكرهم سبحانه وتعالى بأنهم كانوا في لهوهم، وفسادهم. حتى يثبت لهم أن جزاءهم وفق أعمالهم، وأنه لم يظلمهم، بل ظلموا أنفسهم باختيارهم ما أوردهم العذاب.

ثم يُثبت سبحانه وتعالى وقوع الظلم منهم على أنفسهم ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ ووقع العذاب عليهم ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ نتيجة ظلمهم أنفسهم. إذ أفادت جملة ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ سقوط العذاب عليهم استحقاقاً بما كان منهم في الدنيا من إنكار حجج الله تعالى البينات، وتلهيهم عنها، وتكذيبهم لها من غير معرفة لها. فوقع العذاب عليهم ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ فوقوع العذاب عليهم بظلمهم لأنفسهم، وليس بظلم وقع عليهم بالحكم جوراً. وذلك بكفرهم بالبينات من الله تعالى لهم. فحالهم اليوم هو: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ فهم لا يتكلمون حينها بشيء، لأنه لا حجة عندهم يقولونها. فلما أعجزتهم الحجة لم ينطقوا بشيء. فَبُهِتُوا لأنه لم يكن لهم جواب.

وبعد تقريعهم في ساحة الحساب، ينتقل التقريع عليهم بما فاتهم وتركوه وفوّتوه على أنفسهم في الحياة الدنيا، عندما كان لهم اختيار الأصلح الذي ينجيهم من عذاب الآخرة، ليكون هذا البيان وسيلة وعظ وإرشاد لكل إنسان في الدنيا، ليعرف حقيقة الدنيا، وحقيقة الآخرة، ويغتنم حياة الدنيا ليتزود بها للآخرة. فقال تعالى ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ألم يشاهدوا أن ربهم تبارك وتعالى جعل لهم الليل آية ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ فجعل الليل سكناً وراحة، يستريحون فيه من عناء الكدح. وبزمن محدد، وكاف لتحصيل السكون والراحة، بينما جعلنا النهار نوراً على عكس الليل ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فهو مُضيء بالشمس التي يسهل معه الحركة والتنقل، والكدح، وطلب الرزق، وقضاء غير ذلك من شؤون الحياة وحوائجها، وكذلك جعل النهار بالقدر الذي يكفي حاجتهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي جعلناه ليلاً، وجعلناه نهاراً ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ لحجج واضحات على وحدانية الله تعالى، وعلى أن الله تعالى رب كل شيء ومالكه والمتصرف فيه، وأنه المدبر لهذا الكون، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. ووردت الآيات بصيغة الجمع ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ لتفيد أن في كل آية من آيتي الليل والنهار آيات أخرى لو تدبروها، فليست محصورة فقط في سكون الليل، والنهار مبصرا، فهناك النجوم والكواكب،

والشمس والقمر، وتعاقب الليل والنهار وغيرها من الحجج، فإنها آيات وبراهين ﴿لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ يصدقون بأن الله تعالى هو الذي خلق ودبر هذا الخلق العظيم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ومعنى ﴿لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ لناس شأنهم الإيمان والاعتراف بالحجة، ولذلك جعل الإيمان صفة جارية على ﴿لِّقَوۡمٍ﴾ يُومئ إلى أن ذلك الحكم متمكن منهم حتى كأنه من مقومات قوميتهم...ولكون الإيمان مقصوداً به أنه مرجو منهم جيء فيه بصيغة المضارع ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ إذ ليس المقصود أن في ذلك آيات للذين آمنوا. لأن ذلك حاصل بالفحوى والأولوية، فصار المعنى: إن في ذلك لآيات للمؤمنين، ولمن يُرجى منهم الإيمان عند النظر في الأدلة[1] وفي جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ ما يفيد: التقرير والإثبات بأن المصدق بالحقائق، المتواضع لها يتأثر ويَعْتَبِر ويؤمن بالحجج والبراهين، فهم فقط الذين يؤمنون بالحقائق، أما غير المصدق الذي اعتلاه الكبر والحسد، وتقديم الفساد والهوى والشهوات والشبهات على الحق فإنه ينكر الحق الواضح المبين. لأن الأصل في فطرة الإنسان السوي الإيمان بالحجة والبراهين. وهؤلاء غير المؤمنين انتكست فطرتهم، وغلبت عليهم الشهوات.

ومن فوائد دلائل السياق أن قوله تعالى ﴿أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ أن الله تعالى هو الذي قضى بهذا الأمر ﴿أَنَّا﴾ وهو ضمير المتكلم، وهو الله سبحانه وتعالى، الذي أفاد التبجيل والتفخيم والتعظيم لذاته الكريمة العظيمة. وقد نسب عَزَّ وجل هذا التدبير إليه تبارك وتعالى تعظيماً لتدبيره وتسخيره، وأورده عَزَّ وجل بضمير العزة والعظمة ﴿أَنَّا﴾ المرتبط بعظمة ما خلق ودبر وسخر وأعطى، ليفيد كذلك جميل العطاء والإحسان، وجميل التدبير وعظمته الذي كان الأولى بهم تدبره، والاتعاظ به، وحمد الله تعالى وشكره على ذلك. ومؤكداً لعظمة آياته بحرف التوكيد المتصل بالضمير العائد على الجلالة.

وأما في قوله تعالى ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ ما يفيد لفت الانتباه لما بعده من التدبر، ليفيد التوبيخ لهم على عدم اتعاظهم بما يرون ويشاهدون، فإنها آيات باهرات لمن كان له قلب واع، يبحث عن الحق ويتبعه. وفي هذا إنذار لهم بالتفكر والتأمل والتبصر قبل أن يحين ذلك الوقت الذي لا مفر منه، ولا رجعة فيه للتصحيح. وفيه إيقاظ وتنبيه، بل وتم البيان لهم ولغيرهم بأسلوب التنبيه، والرجوع إلى حقيقة النفس في قبول الحق وتصديقه والإيمان به ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ إن تلك الآيات من لحجج والبراهين هي لمن يصدق بها فيؤمن. فهم المستفيدون منها، وليس المستكبرون الجاحدون.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٨/٥٢٣)

وجملة ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ ﴾ سؤال استنكار لتلك العقول التي تكفر بالله تعالى، وهو استفهام توقف وتدبر، فأين عقولهم عن هذا التسخير الذي يرونه بأبصارهم. وهذه الآيات العظيمة التي يرونها بأعينهم، وبصائرهم، وبجميع حواسهم. أيبلغ الأمر بالمكذبين أن يكونوا في غفلة عن آيات الله تعالى في هذا الكون إلى هذه الدرجة من التكذيب؟ والتي منها آية الليل مظلما، والنهار مبصراً، مُضيئا، بما يتناسب مع متطلبات الحياة البشرية ومقتضياتها المعاشية، أبلغت الغفلة إلى هذه الدرجة؟ فمن أظهر هذه الآيات في وضوحها وتكرارها بالتعاقب الدقيق الذي لا يتقدم ولا يتأخر، وارتباطها بحياتهم اليومية. بل إن كل ما يُعبد من دون الله تعالى خاضع لمقتضيات هاتين الآيتين، فلا يستطيع التغيير ولا التبديل والتعديل. فكيف لو تأملوا بقية الآيات. مما يدل على أهمية التأمل في الكون، فإنه يُوجب الإيمان، ويزيد من إيمان المؤمن. وجملة ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ ﴾ فيها استحثاث لكل أحد من العباد أن يتأمل تلك الآيتين وغيرها من الآيات، فالكون كله آيات، وفي النفس آيات لا تُعد ولا تُحصى. فسبحان الله تعالى، له في كل شيء حجج وأدلة على عظمته، وأنه رب كل شيء ومالكه، وأنه الواحد الأحد، ولا رب سواه.

ثم يُخبر الله تعالى عن ذلك اليوم الذي يُنفخ فيه الصور﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴾ والصور هو قرن ينفخ فيه الْمَلَك إسرافيل، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال (الصور: قرن ينفخ فيه)[١] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: والصحيح في الصور أنه قرن من نور، ينفخ فيه اسرافيل، قال مجاهد كهيئة البوق[٢] قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه النفخة الأولى[٣] فاذكر أيها الغافل والمعاند ذلك اليوم، وهو يوم يُنفخ في الصور. وهناك نفختان في الصور: الأولى: للفناء، والثانية: للإنشاء والقيام من القبور. قال تعالى في سورة: يس ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ أي من قبورهم يخرجون. وذكر سبحانه وتعالى في سورة: الزمر النفختين ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ وتكرر

---

(١) أبوداود، سنن أبي داود، برقم (٤٧٤٢) (١٠٧/٥)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٩/١٣)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨٢/٦)

ذكر النفخ في الصور في القرآن الكريم. وقال صلى الله عليه وسلم (ما بين النفختين أربعون) [١] مما يدل على أن هناك نفختين، وبينهما زمن يعلمه الله تعالى.

فيبين سبحانه وتعالى حال الناس حين يُنفخ في الصور ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فيرتاع ويضطرب وينزعج كل مخلوق خوفاً وهلعاً من قوة النفخة في الصور. ويعم الفزع جميع من هم في السماوات والأرض إلا مَن استثناهم الله تعالى ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ إلا من خصهم الله تعالى بالاستثناء من ذلك الفزع، ممن ثبتهم الله عَزَّ وجل وحفظهم من الفزع بكرمه. وقد بينهم تبارك وتعالى بعد الآية التالية لهذه الآية، وهو قوله تعالى ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ ثم يبين عَزَّ وجل هيئة مجيئهم ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ والجميع سيأتي إلى الله تعالى ﴿ دَٰخِرِينَ ﴾ أي: صاغراً، ذليلاً للعزيز الحي القيوم. وفي هذا موعظة وتذكير بما هو قادم عليه الإنسان، ليفيد الحذر من ذلك اليوم بلزوم الطاعة له سبحانه وتعالى وفق ما جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. فنسأل الله تعالى السلامة والأمان منه سبحانه وتعالى، بكرمه وإحسانه.

ويذكر الله تعالى شيئاً من أهوال ذلك اليوم ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ وترى الجبال بنظرك إليها ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ تعتقد أنها ثابتة قائمة كما عهدتها من قبل، والأمر ليس كذلك ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ بل إن الحقيقة خلاف ذلك، فمن شدة أهوال ذلك اليوم أن الجبال تسير سير السحاب في حركتها، فإنها تسير جرياً كما تُسَيِّر الرياحُ السحابَ في حركته السريعة التي لا تشعر بها.

ثم يلفت الانتباه عَزَّ وجل إلى عظيم ما صنع ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فهذا الذي أصبحت عليه الجبال الراسية من الحركة هو إتقان وإحكام الله عَزَّ وجل، فإنه يعود إلى قوة إتقانه العجيب، حتى في حركة الجبال الرواسي. وهو استثارة الذهن إلى عظمة تدبيره سبحانه وتعالى، ليدرك الناس من هذا البيان عظيم ما سيرون قبل حدوثه. ليكون عظة بتعظيم تدبيره عَزَّ وجل. ثم يخبر تبارك وتعالى بعظيم ودقة علمه بعباده ﴿ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ فإن ربكم عليم بما يكون منكم، من خير أو شر، فلا يخفى عليه

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٣٢٠/٣) برقم (٤٩٣٥)

شيء من حالكم. بما يفيد الحذر والانتباه والتحذير والحرص بأن تكونوا على ما أمركم به، فلا تخالفون ربكم عَزَّ وجل في شيء من طاعته، فإنه مجازيكم على أعمالك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ٩٢ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٣ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى بيان عدله سبحانه وتعالى في الجزاء، وبيان ما أمر به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والذي يشمل جميع المؤمنين أجمعين، باعتبارهم تبعاً لرسولهم صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ فمن جاء إلى ربه يوم القيامة ﴿ بِٱلۡحَسَنَةِ ﴾ وهي توحيد الله تعالى، وما يتبعها من الإيمان والعبادات، وسائر الطاعات، والأعمال الصالحة. حيث وردت لفظة الحسنة عامة ﴿ بِٱلۡحَسَنَةِ ﴾ لتشمل مع توحيد الله عَزَّ وجل جميع الأعمال والأقوال الصالحة الملحقة بالتوحيد اعتقاداً وعملاً. قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: الحسنة: لا إله إلا الله(١) وقال الطبري رحمه الله تعالى في معناها: من جاء الله بتوحيده، والإيمان به، وقول لا إله إلا الله، موقناً به قلبُه(٢) ومن فوائد دلالة الحسنة: أنها تأتي بمعنى قول: لا إله إلا الله. وتأتي بمعنى العموم: ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أن هناك قولان في معناها: الأول: قول: لا إله إلا الله. والسيئة: الشرك. قاله ابن مسعود، ومجاهد، والنخعي. والثاني: أنه عام في كل حسنة وسيئة(٣)، وللسياق أهمية في تحديد ذلك.

فمن جاء لربه سبحانه وتعالى بالحسنة ﴿ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا ﴾ فلهم من الله تعالى أفضل وأحسن وخيراً مما فعلوا من الحسنات، فالجزاء أعظم مما عملوا، وذلك بدخولهم الجنة، والفوز بها. وزيادة على ذلك أنهم آمنون من الفزع ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ فهم من فزع أحوال يوم القيامة وأحوال يوم البعث، آمنون، والتي

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣/١٦١)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/١٣٩)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/١٠٨)

منها النفخ في الصور، فإنهم من ذلك الفزع آمنون مطمئنون. وهذا من كمال عطائه ورحمته الذي يفوق العدل منه جَلَّ جلاله.

ومن دقائق البيان وجمال نسقه ودلائله العظيمة أن أورد الله تعالى المجيء لهم إليه سبحانه وتعالى باصطحاب حسناتهم ورفقتها لهم، وهم مصطحبون معهم حسناتهم ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ وكأنها مرافقة لهم في المجيء، ليفيد مرافقة واصطحاب ما قدموه في حياتهم الدنيا معهم في الآخرة، وكأن أعمالهم معهم بالمرافقة والملازمة، وهم في اصطحاب لها برفقتهم إلى يوم الحساب والجزاء. مما يبين عظمة البيان ودقته وإعجازه البياني والبلاغي في الإيضاح، وعظمة عدل الله تعالى لهم، بأنه يوافيهم على كل ما قدموه من إحسان بما هو أحسن وأجزل منه.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن حال من جاء بالسيئة ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فمن جاء إلى ربه يوم القيامة ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ وهي الشرك، وما يتبعها من أعمال الكفر الخبيثة، في الاعتقاد والأعمال والأقوال. قال المفسرون: هي الشرك[1] وفي شموليتها ما يفيد التحذير بالوقاية من السيئات ومفرداتها، وأعلاها الكفر ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ فهؤلاء يُلقَون في النار على وجوههم. فالكَب هو الإلقاء على الوجه.

فمن بشاعة الجزاء أنهم يطرحون بقذفهم في النار على وجوههم. ويمتد عتابهم إلى تذكيرهم بأن هذا ما كنزتم لأنفسكم من أعمالكم الخبيثة التي أردتكم فيما أنتم فيه من الحال المخزية. وورد الخطاب لهم بطريقة السؤال التقريري الذي يحمل التقريع لهم بما كان منهم. فتقول لهم خزنة جهنم ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فما جزاؤكم إلا بما قدمتم من أعمال خبيثة. فتقرر الملائكة لهم ما كان منهم من الشرك، وما يستحقونه من الجزاء، بأسلوب اللوم، فلوموا أنفسكم على ما كان منكم، وبأسلوب التقريع والتوبيخ. وبما يفيد الوعظ لمن هم في الدنيا، من أن مصير أهل السيئات هو هذا المصير، فاعتنوا واربأوا بأنفسكم، واحذروا ذلك اليوم، بأن تجعلوا بينكم وبينه وقاية بطاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان وجمال نسقه ودلائله العظيمة أن أورد الله تعالى المجيء لهم إليه سبحانه وتعالى، باصطحاب ورفقة سيئاتهم، وهم مصطحبون لها معهم ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ فإنها مرافقة لهم في المجيء، ليفيد اصطحاب ما قدموه في حياتهم الدنيا معهم في الآخرة، فإنها معهم، مصطحبون لها برفقتهم إلى يوم الحساب

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨٤/٦)

والجزاء، حتى يوفيهم الله تعالى ما يستحقونه من العذاب. مما يبين عظمة البيان ودقته وإعجازه البياني والبلاغي، وعظمة عدل الله تعالى لهم، بأنه يوافيهم على جميع ما قدموه من السيئات.

ثم يلتفت الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مبيناً له ما يقوله ويعلنه للناس ﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ فأعلن أيها النبي منهج دينك القويم للناس بأنه مبني على توحيد رب البيت العتيق: فبدأ التوجيه الكريم بأداة الحصر ﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ ﴾ لإفادة أن الواجب الذي كلفني الله تعالى به، وأمرني أن أقوم به هو ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ وبالتالي ليس لي حق في قبول ما تقترحون أو تطلبون، فأنا عبد لله تعالى، ومأمور بما أمرني به ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ أن أعبد رب هذه البلدة التي هي مكة ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ فجعل لها حرمة من التقديس، وعدم التعدي فيها بشيء من الباطل، منذ أن خلق الله تعالى الأرض. فجعلها حرماً آمناً، لا يُظلم فيها أحد، ولا يُسفك فيها دم، ولا يصطاد فيها صيد، إذ جعل فيها بيته المحرم، وبارك فيها. وفي هذا غاية التشريف والتعظيم لمكة المكرمة، حرصها الله تعالى بفضله وعزته.

وفي إلصاقها بربوبية الله تعالى ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ ما يفيد عظيم التكريم والتشريف لها. كما أضاف فعل التحريم له سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ فهو الذي قضى بتحريمها. فليس تقديسها وتحريمها من فعل البشر، بل هو بحكم الله تعالى وتقديره واصطفائه لها. كما أن في هذا التنويه لهم بحرمة مكة التي يعرفون لها ذلك، هو طَعنٌ لهم في مخالفتهم لذلك التحريم، بما يفعلون فيها مما يُضاد حرمتها، مما يعرفون من الشرك، ووضع الأصنام فيها، بل وضعوا ذلك في داخل الكعبة المشرفة، وتعاطيهم فيها الخمر، وغيرها من المحرمات. وبما يفيد أنني أُجلُّها، وأُحرِّم ما حرم الله تعالى، بينما أنتم لا تقدسونها بشرككم وفسوقكم.

ثم يقرر عَزَّ وجل أن كل شيء له تبارك وتعالى، من التحريم والتحليل وغيره ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ ﴾ فكل شيء هو مُلك لله تعالى، خلقاً وتدبيراً واصطفاء وتشريعاً. فَيُشَرِّع ما يشاء، ويحلل ويحرم كيف شاء، فلا معقب لحكمه، وبالتالي فإن الدين له وحده لا شريك له، وفق ما شرع، وأنه يُرسل من يشاء ويختار من الرُّسل من يصطفي. فهو تقرير جازم مانع وشامل لكل مخلوق، ولكل ما يقدره، ولكل حكم وتشريع ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ وأمرني ربي أن أكون ممن انقاد لأمره سبحانه وتعالى، مستسلماً له، فَأُحَرِّم ما حرمه

الله تعالى، وأُحِل ما أحله الله عَزَّ وجل. ولا أتعدى وأتجاوز استسلامي وانقيادي لربي جَلَّ شأنه. فإنني من المسلمين لله جَلَّ جلاله، الذين دانوا بدين الله تعالى، والذي كان عليه إبراهيم الخليل عليه السلام. فكان حنيفاً لله تعالى مسلماً، ولم يكن من المشركين.

وكذلك أعلم وأخبر الناس بأن ربك أمرك بتلاوة القرآن، وأن لكل أحد اختياره الذي يختاره من الهداية، أو الضلال. وأن مهمتي معكم ومع غيركم أنني منذر من المنذرين ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ وأمرني ربي أن أتلو القرآن على الناس، وأن أتعاهده بالقراءة، والمداومة والمواظبة على ذلك. وفي الأمر ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ما يفيد أن أتعاهد مسامع الناس بالقرآن، ليسمعوا ويتدبروا آياته التي تُوصلهم لمعرفة الحق والاهتداء به. بما يفيد أن القرآن الكريم كتاب هداية، وآية إعجاز على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، لما فيه من الإعجاز في الوعظ والقصص والأحكام والتشريع والعبر، والترغيب والترهيب، ومكارم الأخلاق في كل باب من أبواب حياة الإنسان، وفيه البيان الكافي لمراد الله تعالى من التوحيد، وتحقيق العبودية له وحده لا شريك له، والذي يدل جزماً على أن هذا الكلام هو كلام الله تعالى، وليس بكلام بشر، ولا يستطيع أن ينظمه إنسان، ولا البشر جميعاً لو تعاضدوا وتعاونوا كلهم، بل حتى لو ترابطوا مع عالم الجن لما استطاعوا. كما يفيد المؤمن بأهمية تعاهد القرآن بالتلاوة، وفهمه وتدبره. فإنه كتاب رحمة وهداية وشفاء.

ثم يوضح تبارك وتعالى ويبين علاقة الناس بالهدى، وعلاقته عليه الصلاة والسلام بهم ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾ فمن اتبع الهدى، واهتدى بما جئتكم به فقد حقق لنفسه الخير، فإن تحصيل ذلك لنفسه هو، وليس من أجلي، فلست أطلب بذلك تحقيق شيء لنفسي ﴿ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ ومن اختار عدم الاتباع والاهتداء به، واختار الضلال فلنفسه. مما يفيد أن الله تعالى قد ميز الإنسان بمعرفة الحق من الباطل، وأن له اختيار ما يهتدي به أو يضل به من الباطل، فهو الحكم على نفسه بما يختار.

ثم يبين لهم انحصار مهمته صلى الله عليه وسلم التي كُلِّف بها في قوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ إنما تنحصر مهمتي في الإنذار من عذاب الله تعالى لمن ضل ولم يهتد، وما أنا إلا واحد ممن سبقني من الرسل المنذرين لأقوامهم. وأنا من فئتهم، منذر منهم للناس بما نزل عليَّ من الحق من ربكم. فلا يضرني عصيانكم، ولست مُلزم بهدايتكم. فأنتم المستفيدون مما جئتكم به من الحق من ربكم. وهذا غاية الترغيب والتحذير

والترهيب، والتحديد لمسؤولية الرسول صلى الله عليه وسلم، وغاية الإنذار والبلاغ المجرد من كل شبهة وغاية لا تستقيم. وهي في حد ذاتها دليل على أن محمداً صلى الله عليه وسلم نبي الله ورسوله.

ثم يختم الله تعالى السورة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يحمد الله تعالى، وأن الله عَزَّ وجل سيريكم آياته الدالة على الحق، فتعرفونها، وأنه عالم بما أنتم عليه ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ فقل يا أيها الرسول ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ اشكر الله تعالى بالقول ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ الذي له استحقاق الثناء كله، والشكر والحمد له كله وحده لا شريك له، المتفضل بالإنعام والعطاء بما أنعم من الإنعام الذي لا يُعَد، والإحسان الذي لا يُحَد.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى أن مِنْ امتنانه على الناس الذي يستحق به الحمد والشكر أنه يريهم آياته الدالة على الحق من الباطل، وأنه خالق الكون، وأنه لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى ﴿ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَا ﴾ سيريكم آياته من الحجج والبراهين، فتعرفون بها أن ربكم هو الله الواحد الأحد، الذي لا معبود بحق إلا هو. وتعرفون بها الحق من الباطل، وبالتالي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة الظاهرة البينة عليه. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والإعذار إليه[١] وقد دل القرآن بالأدلة الكثيرة على آيات الله تعالى في الآفاق، من السماوات والأرض، وفي الأنفس، وكررها بأوجه مختلفة في كتابه القرآن العظيم، ومن الأدلة العقلية، والأدلة البصرية، والمسموعة، وكل ما تحسه وتدركه الحواس، وبأحوال الإحياء والإماتة، وذلك بما يكون ويحصل في الأرض من الإنبات، والجفاف، ثم الإحياء بعد الهلاك، وفي سَوقِ الرياح ونزول الأمطار، وما أنزل من علم الكتاب، القرآن العظيم، وما يهدي إليه الإنسان من العلم والمعرفة والاختراع. وما يزخر به كتاب الله تعالى من البراهين المبينة للحق من الباطل. بل أظهر الإعجاز منه حتى في نسقه وبيانه التي يقف الإنسان أمامها مذهولاً من براعة نظمه التي يعجز عن مثله الإنس والجن ولو تعاضدوا على ذلك واجتمعوا. قال تعالى في سورة الإسراء ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾

ثم يخبر الله تعالى عن كمال علمه بعباده ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ فما ربك أيها النبي بمن يغفل عما يعمل عباده. فقد نفى سبحانه وتعالى عن نفسه الغفلة التي هي أدنى أسباب التفويت لأقل الأشياء، وبهذا النفي أثبت ما هو ضده، وهو كمال العلم والمعرفة المستمرة التي لا تنقطع ولا يحول بينها وبين تحقيقها حائل أبداً.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٩١/٣)

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ فما ربك أيها النبي بمن يغفل عما يعملون. ومن براعة البيان أن الإعلام ورد للنبي صلى الله عليه وسلم بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَمَا رَبُّكَ ﴾ بينما ورد تحقيق مقصد الإخبار لهم ﴿ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ فالْمُخَاطَب بكلمة ﴿ تَعۡمَلُونَ ﴾ هم الكفرة، وبالتالي جمع السياق بين تعيين مخاطبتهم بما يخصهم مما يجب أن يعرفونه عن انتفاء الغفلة عن الله تعالى، وبين تعيين مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم بما خاطبهم به، وأفهمهم عنه. فختم السورة سبحانه وتعالى بآية إعجاز مما سيريهم من إعجازه الخطابي. كما ورد الفعل بصيغة المضارع ﴿ تَعۡمَلُونَ ﴾ ليفيد العلم المستمر والمتتابع لأعمالكم، فليس هناك أدنى انقطاع أبداً. فإن في ذلك بيان لعظمته تبارك وتعالى. فسبحانك يا ربنا وخالقنا، ومدبر أمرنا ورازقنا. اللهم ثبتنا على الحق، وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين. ولا تخزنا يوم يبعثون، واجعلنا من المتقين، ومن أوليائك يا رب العالمين، والمسلمين أجمعين.

تم بحمد الله إتمام سورة النمل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.